ظهورات لورد

طبعة أولى

٢٠١١

٭

منشورات المكتبة البولسية

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة ظهورات

ا

ظهورات لورد

أديب مصلح

٢٠١١

JE SUIS L'IMMACULÉE CONCEPTION

الفصل الأَوّل

طفولةٌ حافلةٌ بالمعاناة

لورد ومغارتها

لقد اختارت العذراء، لإحدى أعظم ظهوراتها، مغارةً في ضاحيةٍ موحشةٍ لمدينةٍ فرنسيّةٍ صغيرةٍ، شبه مغفلةٍ، وفتاةً أُمّيّةً معتلّةً، تنتمي إلى أشدّ أُسر المدينة فقرًا.

لورد، اليوم، مزدهرةٌ، وهي تُعَدّ من أكثر مطارح الحجّ المسيحيّ شهرةً، إذ إنّها تستقطب، من كلّ أصقاع المسكونة، أفواج الحجّاج الذين يربو عديدهم على خمسة ملايين حاجٍّ سنويًّا.

ولكنّ لورد لم تكن كذلك عام ١٨٥٨، عندما ظهرت العذراء للفتاة برناديتّ سوبيروس، بل كانت مدينةً مغمورةً، مدفونةً عند أقدام البيرينيه، وتكاد تكون مجهولةً في فرنسا نفسها، لا يتجاوز عدد سكّانها ٤٢٨١ نسمةً. كانت ملتقى الطرقات المؤدّية إلى الوديان الأربعة المحيقة بها، ونادرًا ما يتوقّف فيها غريبٌ.

مَعْلَمان رئيسان كانا يميّزانها: الكنيسة التي كانت تحتلّ وسط المدينة، يُحيق بفنائها كلٌّ من دار البلديّة، والمحكمة، وبيت مفوّض الشرطة. والمقهى الفرنسيّ، ملتقى المثقّفين. في هذا المحيط كانت حياة المدينة تنبض.

أمّا المَعْلَم الآخر فقصرٌ مهيبٌ هجره أصحابه، وأضحى ملاذًا لعسكريّين عاطلين عن العمل، قصرٌ يدير ظهره للمدينة، ويتّجه نحو نهر الغاف (Gave) الذي يجتاز البرّيّة، والحقول المنبسطة أمام لورد، حيث تتعاقب أراضٍ مزروعةٌ بالقمح والبقول، توفّر قسطًا هامًّا من غذاء السكّان، وأراضٍ مهجورةٌ لا تنمو فيها سوى أشجار الحور والصفصاف، وقد جعل منها الفقراء مراعي لأبقارهم، وأغنامهم وخنازيرهم، ومكان عبثٍ لأولادهم، ينبشون فيه أعشاش العصافير، ويقتطفون التوت البرّيّ، ويجمعون ما رمي فيه من أحطابٍ وعظامٍ، أو يسبحون في مياه النهر الذي يجري خلاله، ويصطادون فيها أسماك الترويت.

وعلى ضفّة النهر حفرت الطبيعة مغارةً سُمّيت مغارة

«مسّابييل» وهذه التسمية باللهجة المحلّيّة، هي تشويهٌ لعبارة «مسّا ڤييّ»، أي الصخرة العتيقة. عرض المغارة نحو ثمانية أمتارٍ، وكذلك عمقها، ولكنّها تضيق ويتناقص ارتفاعها، تدريجيًّا.

في وسط المغارة مشكاةٌ (كوّةٌ يوضع عليها تمثالٌ أو مصباحٌ) بشكل قوسٍ، تغطّيها الأعشاب البرّيّة، وقد نبتت فيها شجرة وردٍ برّيٍّ تدلّت أغصانها حتّى الأرض. وعلى هذه المشكاة اتّكأت صخرةٌ مربّعةٌ كبيرةٌ، ستظهر العذراء على طرفها.

ولكونها مثابة رعاة الخنازير، وملعبًا لأولادٍ مشرّدين، كانت المغارة ومحيطها سيّئي السمعة، وقد أَلِف القوم، هناك، أن يصِفوا إنسانًا رديء السلوك، بأنّه تربّى عند «ضفّة مسّابييل».

ومع ذلك اختارت العذراء ذلك المكان مسرحًا لواحدٍ من أعظم ظهوراتها. وجديرٌ بالتنويه أنّ أهالي لورد كانوا يحيطون السيّدة العذراء بحبٍّ جمٍّ، وبتكريمٍ صادقٍ، وكانت كلّ هياكل كنيستها مكرّسةً لها.

أمّا الوسيطة التي اختارتها العذراء لتبليغ رسالتها، في لورد، فهي برناديتّ سوبيروس.

برناديتّ سوبيروس

هي الابنة البكر لأُسرةٍ فقيرةٍ، بل من أَشدّ أُسر لورد فقرًا، أَسرةٍ تألّبت عليها المصائب.

والدها هو فرنسوا سوبيروس، ووالدتها لويز كاستيرو، وكلاهما ينتميان إِلى أُسر طحّانين.

أُسرة لويز كاستيرو كانت تدير مطحنةً معروفةً بمطحنة «پولي»، وهو لقب أُسرة كاستيرو، كان ربّ الأُسرة قد ابتاعها بالتقسيط، وجهد في تسديد ثمنها، تدريجيًّا، من عائدات دخلها. وكانت الأُسرة تعيش في سعادةٍ وبحبوحةٍ نسبيّةٍ. غير أَنّ وضعها انهار بغتةً، في الأوّل من شهر تمّوز ١٨٤١، إِثر وفاة ربّ الأُسرة نتيجةً لحادث عربةٍ، فأُغلقت المطحنة، وأُسدلت ستائر المنزل، ولم يبقَ سوى النحيب والهمّ، لأَفراد أُسرته المؤلّفة من أَرملته «كلير» البالغة من العمر

٤٤ سنة، وبناتها الأَربع، كبراهنّ في السابعة عشرة، وصغراهنّ طفلةٌ في الثانية، ولهنّ أَخٌ في العاشرة من عمره.

لم يكن الوالد المتوفّى قد سدّد أَقساط المطحنة. ولم يكن ابنه الوحيد قد بلغ سنًّا تؤهّله لإِدارتها، ووقعت الأُمّ الأَرملة فريسة الهمّ والحيرة. وارتأت أَنّ الحلّ الأَمثل هو تزويج ابنتها البكر «بيرنارد» برجلٍ خبيرٍ بالمطاحن، قادرٍ على تشغيل المطحنة، أَملاً في إِكمال تسديد ثمنها، وامتلاكها. ووقع خيارها على فرنسوا سوبيروس، الطحّان البالغ من العمر ٣٤ سنةً، الذي أَخذ يختلف إِلى مطحنة «پولي». غير أَنّه ظلّ، فترةً طويلةً، لا يفصح عن قراره، إِلى أَن صرّح، بعد لأيٍ، بغرامه بالابنة الصغرى لويز، الشقراء، ذات العينين الزرقاوين، لا بالكبرى «بيرنارد». ورغم المحاولات الملحّة التي بذلتها الوالدة الأَرملة، من أَجل إِقناعه بأَنّ الكبرى هي «الوريثة»، حسب التقاليد السائدة، وأَنّها أَشدّ نضوجًا، وأَحكم إِدارةً، وخير ربّة منزلٍ، فضلاً عن أَنّ التقاليد لا تستحسن تزويج الصغرى قبل الكبرى، لم يحِدْ فرنسوا عن عناده، وآثر صوت القلب على صوت العقل. واستمرّ هذا

الجدال سنةً، إلى أَن استسلمت الأُمّ الأَرملة لعناد الصهر العتيد.

عُـقـدت مـراسـم الـزواج الـكـنسيّ في ٩ كـانـون الـثـاني ١٨٤٣، وتولّى فرنسوا سوبيروس إدارة مطحنة بولي، وعاش في سعادةٍ وحبٍّ مع زوجته لويز التي كانت قد بلغت، آنذاك، السابعة عشرة. وكانا، كلاهما، أُمّيّين، وغير عابئين بالأُمور الماليّة التي تولّتها الحماة الأَرملة وابنتها الكبرى اللتان، رغم كونهما أُمّيّتين، أَيضًا، كانتا أَوفر وعيًا لشؤون المال.

وكانت برناديتّ أولى ثمار ذلك الزواج، وقد رأت النور في السابع من كانون الثاني ١٨٤٤، ويومين بعد ولادتها، أَي يوم ذكرى زواج والديها السنويّة الأولى، نالت سرّ العماد، في كنيسة لورد، وكان عرّاباها خالتها بيرنارد، وابن عمّتها.

وغمر طفولتها حبّ والديها، وجدّتها، وخالتها. ولم تنسَ برناديتّ، يومًا، طيبة والدتها، وحنانها، وصبرها، ولا بسمة

أَبيها، وصمته، وزهوه بابنته البكر، وعينيه اللّتين كانتا ترمقانها برقّةٍ وعذوبةٍ، ولا قبّعته الفرنسيّة المغطّاة، دائمًا، بالطحين. كما لم تنسَ ساعة كانت تصمت جعجعة الرحى، في المساء، فيتعالى، في المنزل، دعاء «أَبانا الذي في السماوات»، على وقع وسوسة الساقية.

غير أَنّ مواكب المِحَن لم تتلكّأْ في التوافد. ففي مساء يومٍ من شهر تشرين الثاني، وما كادت برناديتّ تتخطّى شهرها العاشر، كانت أُمّها التي حملت ثانيةً، راقدةً قرب الموقد، تستريح من عناء يومٍ حافلٍ بالتعب، فسقطت عليها شمعةٌ كانت مثبّتةً على مدخنة الموقد. ولمّا استيقظت كانت مساحاتٌ رحبةٌ من جسمها قد احترقت، فتعذّرت عليها مواصلة إرضاع طفلتها، التي أَوكلتها خالتها إلى مرضعةٍ كانت قد فقدت ابنها قبل أَيّامٍ معدوداتٍ، لقاء خمسة فرنكاتٍ شهريًّا تدفع نقدًا، أَو تقايض بدقيقٍ.

وكان التوق إلى رؤية طفلته لا ينيي يشدّ فرنسوا سوبيروس، فيجتاز، باطّرادٍ، كيلومتراتٍ عديدةً، متذرّعًا بشتّى الحجج،

كي يطفئ سعير شوقه إليها. ولّما طالب باسترجاعها، قاومت المرضعة إعادتها له، إذ كانت قد كَلِفت بها، وأَلِفت حضورها، وشقّ عليها أن ترى مهدها خاليًا. بل إنّها تنازلت عن أُجرتها كي تحتفظ بالطفلة، ولم تُعِدها إلى والديها إلاّ بعد بلوغها من العمر سنتين وأربعة أشهرٍ. وكم سعدت برناديتّ بالعودة إلى أحضان والديها، وإلى جعجعة الرحى، ووسوسة الساقية!

وما انفكّ موكب المصائب يتضخّم، يومًا فيومًا. ففيما كان فرنسوا سوبيروس، ذات يومٍ، مكبًّا على تخشين رحى الطاحون، أُصيبت عينه اليسرى بشظيّةٍ قضت عليها.

وأضاف سوء إدارة فرنسوا ولويز، واستهتارهما بالأُمور الماليّة، عنصرًا آخر أسهم في تفاقم أوضاع الأُسرة عسرًا. فشحّ المال بين أيدي الزوجين إلى أن عجزا عن سداد أقساط المطحنة. فقد كان معظم عملائهما من المحتالين أو المعسرين الذين لا يملكون ما يؤدّون به أُجرة طحنهم، فيمهلانهم حتّى يتوفّر لديهم المال، وهو لا يتوفّر أبدًا. وقد يسلّفانهم شيئًا من

الحنطة والدقيق حتّى الموسم القادم، ونادرًا ما توفى السلف.

وفضلاً عن ذلك اعتاد آل سوبيروس على حسن وفادة زبائنهم. فكلّ من جاء بحنطةٍ كي يطحنها، أو من جاء كي يستعيد دقيقًا مطحونًا، كان يحظى بوجبة طعامٍ سخيّةٍ، لا يغيب عنها النبيذ والجبن، والرقائق الشهيّة التي كانت السيّدة لويز تتقن إعدادها. لا ريب أنّ هذا السخاء كان يضفي على المطحنة جوًّا مرحًا، وبهجةً، ولكنّه كان يستنفد مال الأُسرة الزهيد. وكان سوء الإدارة ينفّر العملاء الجادّين، ويستهوي الطمّاعين الذين يستسهلون استدانةً لا وفاء لها.

وما لبث أن أفضى هذا الوضع بفرانسوا سوبيروس وأُسرته إلى الإفلاس، فأُكرهوا على إخلاء المطحنة. كانت برناديتّ، آنذاك، في العاشرة، وقد شقّ عليها هجر مرابع صباها، ورؤية ذويها، وقد كوّموا أمتعتهم على عربةٍ، وراحوا يبحثون عن ملجأ.

وتحوّل فرنسوا سوبيروس من صاحب مطحنةٍ، إلى عاملٍ يوميٍّ يؤجّر جهد ساعديه في أيّ عملٍ قد يساعده على توفير

الخبز الأَسود لأَبنائه الذين كان عددهم قد ارتقى إلى أَربعة. وكانت أُجرة العامل اليوميّة أدنى من أُجرة بغلٍ أَو حصانٍ (كديشٍ). ومن البديهيّ أَنّ أَجرًا كهذا لم يكن كافيًا للقيام بأَوَد ستّة أَفرادٍ، بل حتّى لتوفير الحدّ الأَدنى الذي يحول دون موتهم جوعًا. فاضطُرّت السيّدة لويز، إلى العمل في الحقول وفي منازل الغير. ومع ذلك، توفّي خمسةٌ من الأَولاد التسعة الذين أَنجبتهم، وهم في أَشهرهم، أَو في سنواتهم الأولى. وفي أَثناء عمل والدتها خارج المنزل كانت ابنتها برناديتّ تتولّى السهر على إِخوتها، والنهوض بمهامّ البيت.

وعندما كانت الفاقة تشتدّ بالأُسرة، كانت برناديتّ وشقيقتها الصغرى تمضيان لالتقاط الحطب، والعظام، والخردة، وكلّ ما يمكن بيعه لقاء دريهماتٍ تبتاع بها الأُسرة الزهيد من الطعام. وكان من الطبيعيّ، في تلك الظروف، ألاّ تغشى برناديتّ أَيّة مدرسةٍ.

في خريف ١٨٥٥، أُصيبت برناديتّ بالكوليرا التي انتشرت في لورد. ولكنّها عولجت، وشفيت منها. غير أَنّ

هذه الإصابة زادت صحّتها الهشّة هشاشةً، واعتلالاً. ومنذئذٍ ابتليت بداء الربو الذي رافقها حتّى وفاتها.

في تلك السنة عينها، أَي في عام ١٨٥٥، توفّيت جدّة برناديتّ لوالدتها، وقد أَتاحت حصّة إِرثها تقويمًا مؤقّتًا لوضع أُسرة فرنسوا سوبيروس، ولكن من جرّاء سوء إِدارته المعتاد، وُظّفت مبالغ تفوق مبالغ الإِرث في شراء أَبقارٍ وعجولٍ، وفي استئجار مطحنةٍ أُخرى تُشبع حنين فرنسوا إِلى المهنة التي نشأ عليها. غير أَنّ عقد الاستئجار المجحف الذي وقّعه فرنسوا برسم إِشارة صليبٍ صغيرٍ، وهو جاهلٌ لفحواه وشروطه وعواقبه، قد أَفضى به إِلى الإِفلاس، في غضون سنةٍ واحدةٍ، وإِلى إِخلاء هذه المطحنة، أَيضًا.

وما انفكّت أَحوال الأُسرة تتفاقم سوءًا وانهيارًا، يومًا إِثر يومٍ، فالأَفواه المحتاجة إِلى طعامٍ كثيرةٌ، ولا عمل ولا مال.

في شتاء ١٨٥٦–١٨٥٧، اضطرّت الأُسرة إِلى الاستغناء عن أَحد الأَفواه المحتاجة إِلى طعامٍ، فأُرسلت برناديتّ للعمل لدى خالتها التي كانت قد ورثت من زوجها حانةً. وكانت

مهمّة برناديتّ السهر على أبناء خالتها، والعناية بشؤون البيت من غسلٍ، وتنظيفٍ، وخياطٍ. وعند فراغها من هذه المهامّ، كانت تساعد خالتها في الحانة. ويبدو أنّها كانت قد ورثت كرَم والديها، إذ كانت تقدّم لصُوَيْحباتها جرعة النبيذ المتبقّية في المعيار المعدنيّ، بعد ملئها القارورة المعدّة للزبائن، ولا سيّما أنّ النبيذ كان، آنذاك، في تلك المنطقة، نادرًا، وكان يُعَدّ دواءً منعشًا للمعتلّين.

في مطلع عام ١٨٥٧، ومن جرّاء البطالة السائدة، طُرِد آل سوبيروس من مسكنهم الوضيع، واحتفظ صاحب المنزل بخزانة ثيابهم تسديدًا لجزءٍ ممّا كانوا يدينون له به. ولم يجد فرنسوا سوبيروس مأوًى لأُسرته سوى زاويةٍ قذرةٍ، تفوح منها روائح العفن والرطوبة، من سجنٍ قديمٍ، كان قد أُخلي بسبب عدم أهليّته الصحّيّة. وكان ذلك المكان الزريّ ملكًا لأحد أنسبائه، الذي استقبله فيه على مضضٍ، إذ كان يؤثر تأجيره لعمّالٍ إسبانيّين يأتون للعمل، صيفًا.

بمشقّةٍ حُشرت الأُسرة، مع أمتعتها، في حجرةٍ معتمةٍ

رطبةٍ، لا تتجاوز مساحتها ستّة عشر مترًا مربّعًا، وبما أنّ المجاعة كانت مستفحلةً في المنطقة، كانت لويز سوبيروس تطعم أُسرتها حساء أعشابٍ برّيّةٍ، لا تغذّي سوى المخيّلة. وقد لحظت إحدى نساء لورد، يومًا، في الكنيسة، طفلاً ينقر بأصابعه الشمع المتساقط على الأرض كي يأكله. وكان ذلك الطفل شقيق برناديتّ الأصغر، «جان ماري سوبيروس».

ولكأنّ الفقر المدقع لم يكن امتحانًا كافيًا، فأُضيف إليه الافتراء والاضطهاد، والسجن، والخزي. ففي ليلة السابع والعشرين من آذار ١٨٥٧ سُرق كيسا دقيق من فرن القرية، واتّهم صاحب الفرن فرنسوا سوبيروس بسَرقَتهما، مع أنّه كان قد وظّفه لديه، في السنة السابقة، واعترف بأنّه لم يشكّ، لحظةً، في أمانته واستقامته. ولم يكن من أساسٍ لاتّهامه بالسرقة سوى ما انتهى إليه من فقرٍ وفاقةٍ. ومع هشاشة هذا الاتّهام، اقتيد المسكين إلى السجن، حافيًا، إذ كان رجال الشرطة قد صادروا أحذيته، بحجّة إظهارها تشابهًا مع آثار أحذية السارق، رغم أنّ محضر التحقيق أثبت اختلافًا جليًّا في قياس الحذائين، وفي توزيع المسامير في كلٍّ منهما. وكان

رجال الشرطة قد وجدوا في بيت سوبيروس لوحًا خشبيًّا قديمًا، مسندًا على جدارٍ، وبما أنّهم عجزوا عن إثبات سرقته للدقيق اتّهموه بسرقة هذا اللوح.

وكان يُرهق فرنسوا، في سجنه، ما أُلحق اتّهامُه وسجنه بعائلته من مهانةٍ وخزيٍ وتهميشٍ، وما سبّب لهم انقطاع دخل عمله من فاقةٍ وحرمان.

ومع أنّ المحقّق العدليّ أمر بالإفراج عنه، بعد مضيّ أُسبوعٍ على اعتقاله، «لأسبابٍ إنسانيّةٍ»، ولعدم ثبوت أيّة أدلّة إدانةٍ، غير أنّ سمعته أُصيبت بلوثةٍ لن تمّحي، ما زال حيًّا، وأُضيفت إلى صفة «التنبلة» التي كانت تُلصق به، زورًا وبهتانًا، صفةُ اللصوصيّة الباطلة.

ولم يبقَ له، في الحياة، سوى سندين: الأوّل زوجته لويز التي ظلّت وفيّةً، ومساندةً له في محنته وانهياره، مثلما كانت في الأيّام الحلوة، فلم يجرح أحدهما الآخر، قطّ، ولو بكلمةٍ نابيةٍ، رغم تحريض عائلتيهما أحدهما على الآخر.

أمّا السند الآخر، فكان الصلاة الجماعيّة التي كان يشترك

في تلاوتها، بصوتٍ عالٍ، جميع أَفراد الأُسرة، بلغةٍ فرنسيّةٍ لم تكن برناديتّ تفقه منها شيئًا، ولكنّها كانت تضعها في جوّ حضورٍ سامٍ، وكانت لها سندًا في الآتي من الأَيّام.

ففي شهر أَيلول ١٨٥٧، طلبت مرضعتها السابقة استخدامها، كي تساعدها في شتّى الأَعمال، من سهرٍ على الأَطفال، ورعايةٍ للأَغنام، والنهوض بمهامّ المنزل. وقد تلقّف والدا برناديتّ هذا العرض بحماسٍ إِذ كان يعفيهما من فمٍ ينبغي إِطعامه، ويردف دخل الأُسرة ببضعة دريهماتٍ. ولكنّ نزوح برناديتّ عن البيت الأَبويّ كان يعني لها حرمانًا مزدوجًا: أَهمّهما حرمانها من إِيثار والديها لها، فقد كانا يجهدان في توفير خبزٍ أَبيض لها، نظرًا لهشاشة صحّتها، في حين كان الخبز الأَسود هو طعام سائر أَفراد الأُسرة. هذا الإِيثار لم تجده في بيت المرضعة السابقة، حيث كان أَسياد البيت وأَبناؤهم يتناولون خبز الحنطة، وتُعطى، هي، خبز الذرة الذي كانت معدتها تلفظه.

أَمّا عن التعليم الدينيّ، فقد تراجعت مستخدِمتها عن وعد

السماح لها بمتابعته، بعد ظهر كلّ يوم خميس، لدى كاهن الرعيّة، بحجّة أنّ الأغنام لا تصوم عن الرعي يوم الخميس، وتطوّعت هي لتلقينها إيّاه بنفسها، مع أنّها كانت غير مؤهّلةٍ لتلك المهمّة. وفي هذا السبيل كانت تستخدم كتابًا فرنسيًّا، تتلو منه عباراتٍ لا تفقه برناديتّ منها حرفًا، ولا تفقه معلّمتها المرتجلة أكثر منها. كانت تجهد في تحفيظها هذه العبارات عنوةً، مكرهةً إيّاها على ترددها مرَّةً تلو مرَّةٍ، وكأنّها تُدخل مسمارًا في جدارٍ صلبٍ بطَرَقاتٍ متواترةٍ، وهي لا تني تصيح: «كرّري، كرّري!». وإذ كانت الفتاة المسكينة تفشل في الحفظ، كانت مستخدمتها تصفها بالحمق، مؤكّدةً لها أنّها لن تُفلح، يومًا، في الاحتفال بمناولتها الأولى، فتقضي الفتاة البائسة ليلها تذرف الدموع، ناعيةً أجمل حلمٍ كان يراودها.

هذا، فضلاً عن قسوة مستخدمتها التي كانت تنفّس، ربّما لاشعوريًّا، عن حقدها الدفين عليها، ورغبة الانتقام منها، لأنّها أرضعتها لبنًا كان ابنها الذي توفّي عام ١٨٤٤، أولى به منها. وكانت تكلّفها بمهامَّ تفوق طاقتها. وكان كاهن الرعيّة

يمرّ، بين فينةٍ وأُخرى، بالبيت الذي كانت تعمل فيه برناديتّ، فيؤنّب ربّته على قسوة معاملتها للفتاة، وعلى أُسلوب تلقينها التعليم المسيحيّ. فتغيّر المرأة نهجها، بضعة أيّامٍ، ثمّ تستعيد جفوتها وقسوتها.

بالإجمال، كانت إقامتها لدى مرضعتها السابقة محنةً، ومدرسة ألمٍ، ولكنّها كانت تقول: «عندما يسمح الله بامتحاننا، فلا مبرّر لشكوانا». وكانت هذه الفكرة تُشيع في نفسها السلام.

العزاء الوحيد الذي عهدته، في تلك الفترة، هو ساعات الصمت والسكون والتأمّل التي كانت تقضيها، وهي ترعى الخراف والأغنام. فقد كانت كَلِفةً بالحملان الصغيرة، مع أنّ هذه كانت تدأب على تدمير الهياكل الحجريّة التي كانت تتسلّى الفتاة بإشادتها، وكانت لا تني تنطحها فتعطّلها عن حياكة الأصواف. وكانت تلقى تعزيةً، أيضًا، في الصداقات التي تعقدها مع راعياتٍ أُخرياتٍ في مثل سنّها، صداقاتٍ كانت تخفّف عبء كونهنّ طفلاتٍ خادماتٍ. وكانت تسعد،

أَحيانًا، بزيارة أَبيها لها، وهي ترعى الأَغنام، فيؤنس وحدتها، ويُدخل إِلى نفسها الطمأنينة، وينسيها شيئًا من متاعبها.

لم تكن برناديتّ صوفيّةً متوغّلةً في دنيا الروحانيّات، ولكنّها كانت وثيقة الاتّحاد باللّه، وكانت تحيا هذا الاتّحاد مثل الصغار والفقراء، بالأُسلوب الذي جعل يسوع يرتعش فرحًا، ويعلن: «**أَشكرك، يا أَبتِ، لأَنّك أَخفيت ذلك عن الحكماء والعلماء، وأَعلنته للصغار**».

اتّحادها باللّه كانت تحياه ببساطةٍ مطلقةٍ، البساطة التي تروق للّه، بساطة من يرحّبون بالبشرى السعيدة، وهم ينفّذون «مشيئة اللّه». لقد حافظت على نقاء معموديّتها الذي لم تفسده أَنفاس العالم.

غير أَنّ حلمها بالاحتفال بالمناولة الأولى كان لا يني يؤرّقها، ولا سيّما أَنّها كانت قد تخطّت الرابعة عشرة، وما انفكّ مستخدِموها يتذرّعون بشتّى الحجج كي يرجئوا منحها فرصة تحقيق هذا الحلم الجوهريّ في حياتها. ولذلك حزمت

أَمرها على تحقيقه بنفسها، مهما كلّف الأَمر. ففي يوم أَحدٍ – وهو يوم زيارتها الأُسبوعيّة لذويها – صارحتهم بأَنّها لم تَعُدْ تطيق صبرًا على إِرجاء موعد مناولتها الأولى، وبأَنّ كاهن الرعيّة مصرٌّ على منحها هذه المناولة، في أَقرب موعدٍ، ولا بدّ من التأهّب لها. ورحّب والدها بعودتها إِلى المنزل، بعد أَن تبيّن مدى معاناتها، غير عابئٍ بالدريهمات التي كانت ترفد بها دخل الأُسرة. وتوفيرًا للنفقات أُدخلت برناديتّ إِلى مدرسةٍ مجّانيّةٍ تديرها جمعيّة راهبات «نوڤير».

لقد آثرت برناديتّ العودة إِلى فقر منزل ذويها، بكلّ ما ينطوي عليه من رطوبةٍ، وعتمةٍ، وروائح تعفّنٍ، ولكن حيث ينبض الحبّ الحقّ، الذي يطيب معه احتمال كلّ المنغّصات. كانت قد بلغت الرابعة عشرة، ولكنّها تبدو وكأَنّها لم تتخطَّ الحادية عشرة بسبب ضآلة حجمها، وقصر قامتها، قياسًا إِلى عمرها. ومع أَنّ الشمس لوّحتها، إِلاّ أَنّ ملامحها لم تفقد شيئًا من رقّتها الفطريّة. جبينها العريض كان ينمّ عن صفاءٍ بالغ، وحاجباها المقوّسان يظلّلان عينين بنّيّتين، يتجلّى منهما جمالٌ هادئٌ عميقٌ، لم يكدّر نقاءَهما

أَيّ هوًى وبيلٍ. وكان فمها يعبّر عن طيبة نفسٍ راسخةٍ، وعن تعاطفٍ مع كلّ أَلمٍ.

قسَماتها الرقيقة كانت تفتن، وتبعث جاذبًا لا يُقاوَم، نابعًا من سموّ نفسها. هذا الجاذب السرّيّ، المنبعث من تلك الفتاة الأُمّيّة المرتدية أَسمالاً زريّةً، كان تجلّيًا لجلال البراءة.

والدا برناديتّ

مسكن آل سوبيروس (سجن قديم)

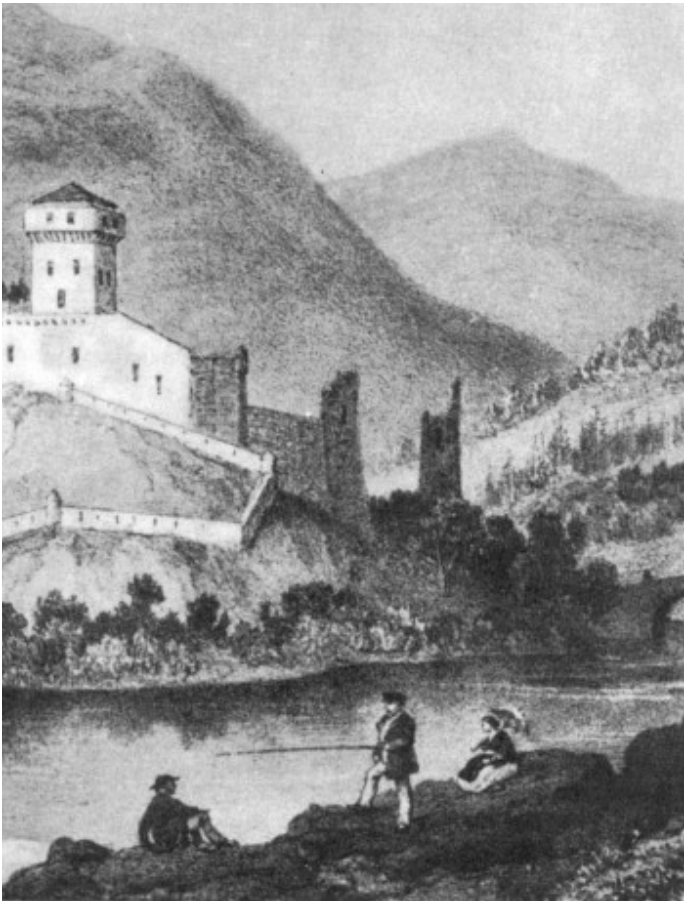

لورد سنة ١٨٥٨

بيت الطفولة الأولى

مکان ظهور ۱۱ شباط

صورة لبرناديتّ تمثّلها في أثناء ظهور

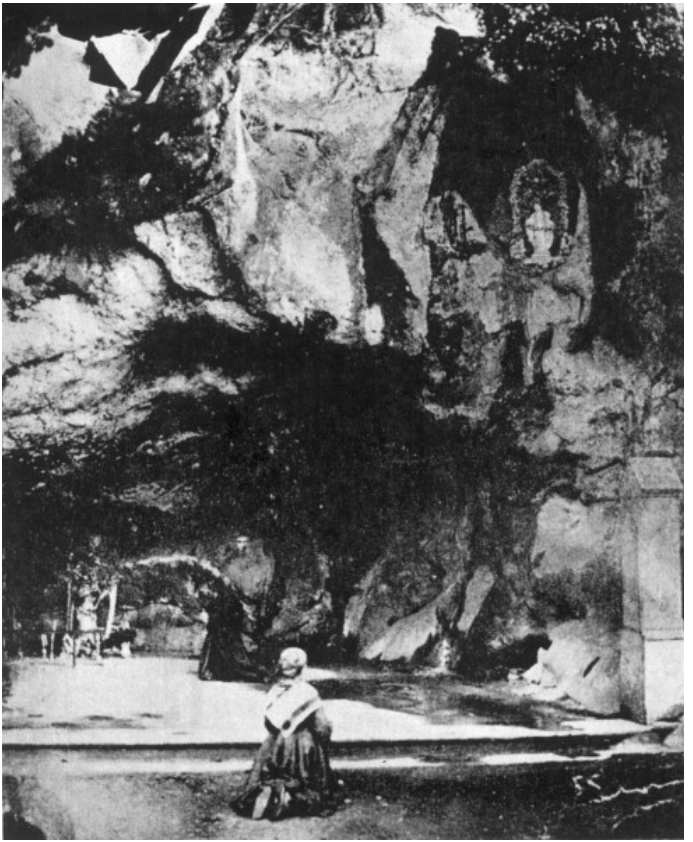

الصورة الوحيدة لبرناديتّ في المغارة (١٨٦٣)

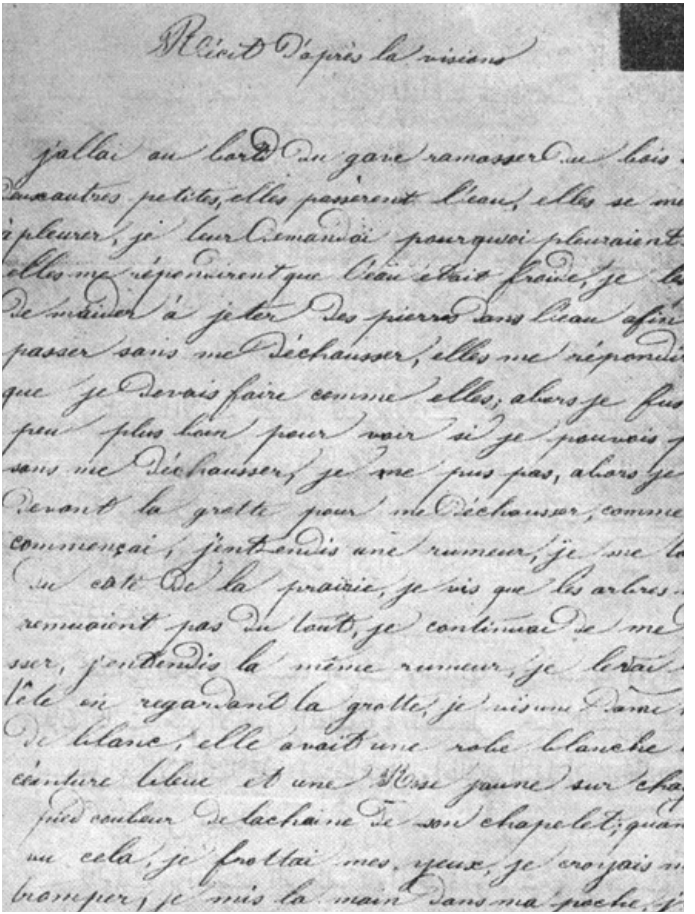

وصف للظهور الأوّل بخطّ يد برناديتّ

الفصل الثاني

ظهورات العذراء

الظهور الأَوّل: ١١ شباط ١٨٥٨

الساعة الحادية عشرة، قُبَيْل الظهر، كان فرنسوا سوبييروس مستلقيًا على سريره، إذ لم يستأجره أَحدٌ للعمل لديه، في ذلك اليوم. فرأى خيرًا له أَن يوفّر قواه ليومٍ آخر، يتعيّن عليه العمل فيه، ويوفّر، في الآن عينه، بعض الطعام الذي يكون أَبناؤه أَشدّ حاجةً إِليه.

كان البرد قارسًا، وتبيّنت برناديتّ أَنّ الحطب المتوفّر في المنزل يكاد لا يكفي لطهو الحساء الذي كانت أُمّها تُعدّه، مع أَنّ أُمّها وشقيقتها كانتا قد جاءتا، في الأَمس، بكمّيّةٍ وافرةٍ من الحطب. غير أَنّ ذويها اضطُرّوا إِلى بيعها من أَجل ابتياع الخبز.

ذلك اليوم كان يوافق ما يدعى «الخميس الدسم» من أُسبوع المرفع، الذي يسبق الصوم الكبير. وفيما كان الميسورون

ينعمون بما لذّ وطاب من طعامٍ وشرابٍ، كانت أُسرة فرانسوا سوبيروس تفتقر حتّى إلى الحطب اللازم لطهو حساء أعشابٍ هزيلٍ.

كان لا مفرّ، إذن، من الشخوص إلى البرّيّة وجمع كمّيّةٍ أُخرى من الحطب. وتطوّعت لهذه المهمّة برناديتّ وشقيقتها «توانيت»، ورفيقةٌ لها تدعى «جانّ أبادي»، وهي ابنة عامل مقلَعٍ.

بادئ الأمر، عارضت الوالدة خروج برناديتّ، في ذلك الطقس البارد الماطر، الكفيل بمضاعفة مخاطر الربو الذي كاد يخنقها في تلك الليلة، فبدا محيّاها، في ذلك الصباح، شديد الشحوب، ممّا ضاعف هواجس أُمّها، وقلقها عليها. مع أنّها، دون سائر أفراد الأُسرة، كانت تلبس جوارب تقيها من البرد.

استسلمت الأُمّ، أخيرًا، لإلحاح ابنتها الكبرى، التي أقنعتها بأنّ الهواء الطلق خيرٌ لها من هواء البيت الموبوء، فزوّدتها بفيضٍ من توصيات الوقاية والحيطة، وأجبرتها على ارتداء سترةٍ صوفيّةٍ ذات قلنسوةٍ تغطّي الرأس والوجه.

وانطلقت ثلاثة أَزواج قباقيب تقرع بلاط الشوارع، حتّى انتهت الفتيات الثلاث إِلى البرّيّة. وصادفنَ امرأةً تغسل أَمعاءً في النهر، نصحتهنّ بالتوجّه إِلى مغارة مسّابييل، حيث يسعهنّ جمع كفايتهنّ من الحطب والعظام.

وبما أَنّ المطحنة القريبة من المغارة، كانت معطّلةً، في ذلك اليوم، ومياه النهر قد حُوِّلت إِلى مجرًى آخر، بحيث لم تعد تعلو فوق مستوى الركبة، خلعت «جانّ» قبقابها، وقذفته إِلى ضفّة النهر الأُخرى، وتبعتها «توانيتّ»، حاملةً قبقابها بيدها. ولبثت برناديتّ تنتظر، فقد كان الربو، وتوصيات أُمّها تمنعها من الخوض في مياهٍ صقيعيّةٍ. واستغاثت برفيقتيها اللتين كانتا ترتعدان من القرّ على الضفّة الأُخرى، راجيةً أَن تلقيا في الماء بعض حجارةٍ كبيرةٍ تتيح لها اجتياز النهر بلا بللٍ، ولكنّهما لم تستجيبا لطلبها، بل سخرتا منها ومن جبنها. وبحثت عن مكانٍ تستطيع منه العبور إِلى الجانب الآخر، من غير أَن تُضطَرّ إِلى خلع جواربها، فلم تجد إِلى ذلك سبيلاً. وأَخيرًا، عادت إِلى قرب المغارة وشرعت تخلع جواربها، وقد وطّنت العزم على المخاطرة بخوض الماء البارد.

كان الوقت ظهرًا، وجميع نواقيس القرى المجاورة تردّد دعاء التبشير، وبغتةً سمعت برناديتّ ما يشبه هبّة ريحٍ شديدةٍ، ظنّتها عاصفةً مفاجئةً، والتفتت، تلقائيًّا، كي تستبين حقيقة الأمر، فإذ بأوراق الحور ساكنةٌ لا تحرّكها نسمةٌ. واستأنفت خلع جواربها، ولكنّ صوت الريح دوّى ثانيةً، ورفعت رأسها فرأت النبتة الشائكة المتدلّية من كوّة المغارة تتحرّك، وسط سكونٍ محيطٍ شاملٍ، وإذ بنورٍ رقيقٍ يضيء، تدريجيًّا، مدخل المغارة المعتم، وفي ثنايا هذا النور، رأت فتاةً رائعة الجمال، لا يداني جمالَها أَيُّ جمالٍ بشريٍّ، ترتدي ثوبًا أبيض طويلاً، وقد افترّت شفتاها عن ابتسامةٍ ساحرةٍ، وبسطت ذراعيها، وانحنت في إيماءة ترحيبٍ، تعني «اقتربي»!

هذا المشهد الذي طالعها، على حين غرّةٍ، كاد ينتزع منها صيحة ذعرٍ، ولكنّ الصيحة اختنقت في حنجرتها. واجتاحت كلَّ فرائصها ارتعاشةُ تجلّةٍ وخوفٍ مقدّسٍ. كانت مصعوقةً، مبهورةً، فتهاوت راكعةً.

أَذهلتها المفاجأة وجمّدتها في مكانها. ربّما خافت، ولكنّه كان خوفًا عذبًا. لم تساورها أيّة رغبةٍ في الفرار، بل لم يكن أَعذب على قلبها من التلبُّث، والتأمّل إِلى الأَبد.

لم تكن قد أَلِفت، من قبلُ، التخيّلات، وأَحلام اليقظة، وخشيت أَن تكون ضحيّة هلوسةٍ، فطفقت تفرك عينيها، مرَّةً تلو مرَّةٍ، ومع ذلك، ما إِن تعيد التحديق حتّى يطالعها منظر الفتاة البيضاء الفاتنة ذاتها، والبسمة عينها.

النور الذي كان يحيق بها لم يكن يزعج ولا يؤذي العيون كما يفعل نور الشمس، بل كان هالةً متلألئةً، مثل حزمة أَشعّةٍ، وكان يجتذب النظر فلا يقوى على مقاومته، بل يغوص فيه، ويستكين إِلى متعته. كان مثل نجمة الصبح، مثل النور في طلاوة الصبح. لا شيء، في ذلك الطيف السماويّ، كان مبهمًا أَو ضبابيًّا، بل كان واقعًا حيًّا، كان جسمًا بشريًّا لا يختلف عن أَجسامنا إِلاّ بالهالة المحيقة به، وببهائه العلويّ المنقطع النظير.

كانت فتاة الظهور ربعة القامة، غضّة الشباب، في رقّة

العشرين من العمر. ولكنّ تلك الرقّة العذبة كانت تحمل سمات الأبديّة. وفي ملامحها السماويّة كانت تمتزج، في تناغمٍ وتآلف، جمالات مواسم الحياة المتعاقبة: براءة الطفولة، وطهر العذراء المطلق، ووقار الأُمومة العذب، السامي، وحكمةٌ تفوق تراكم حكمة الأجيال كلّها. جميع تلك الملامح كانت تتآلف وتندمج في محيّا تلك الفتاة الرائع، ولا يشوبها أَيّ كدرٍ. من شأن أَيّة صورةٍ أَو أَيّ تشبيهٍ أَن يسيء إِلى ذلك النموذج الفريد. ما من جلالٍ في الكون، ما من تميّزٍ في العالم، ما من بساطةٍ على هذه الأَرض كفيلةٌ بالمساعدة على تصوّرها. فأفلاك السماء لا تضاء بفوانيس الأَرض.

من عينيها الزرقاوين كانت تنبعث عذوبةٌ كفيلةٌ بإِذابة قلوب جميع من تقع عليهم أَنظارها. شفتاها تنمّان عن طيبةٍ ورأفةٍ إِلهيّتين. جبينها يوحي باحتواء الحكمة القصوى، أَي معرفة الأَشياء كلّها، مقترنةً بقداسةٍ لا حدود لها.

ثيابها المصنوعة من مادّةٍ مجهولةٍ، والمنسوجة في مصنعٍ

سرّيٍّ، حيث تستمدّ زنابق الحقول والوديان زيّها، كانت بيضاء، في مثل نصاعة ثلوج القمم، وكانت، في بساطتها، تفوق، فخامةً، ثياب سليمان في عزّ مجده. ثوبها الطويل لم يكن يُظهر سوى قدميها الحاطّتين على الصخر، والدائستين، برقّةٍ، غصن شجرة النسرين.

زنّارٌ بلون السماء، كان يشدّ خصرها، ويتدلّى منه شريطان عريضان يلامسان قدميها. ووشاحٌ أبيض كان يلفّ كتفيها وساعديها، وينطلق من رأسها حتّى أسفل ثوبها.

وما من زينةٍ زائفةٍ ممّا أَلِفته مظاهر الزهو البشريّ: فلا خواتم، ولا أَطواقٌ، ولا جواهر. بل كانت تتدلّى من يديها المضمومتين بخشوعٍ مسبحةٌ حبّاتها بيضاء مثل قطرات الحليب، وسلسلتها صفراء، مثل ذهب الحصاد. تلك الحبّات كانت تنزلق بين أناملها، فيما ظلّت شفتاها الطاهرتان لا تتحرّكان، وكأنّها تصغي، في سريرة نفسها، إلى صدى تحيّة الملاك الخالدة، والى تمتمات التضرّعات الجمّة المتصاعدة من الأرض. كلّ حبّةٍ تلمسها أصابعها كانت طوفان نِعَمٍ سماويّةٍ

تهمي على النفوس، مثل لآلئ الندى التي تهمي على تويجات الزهور. وكانت أنظار الطيف السماويّ ترمق، بحنانٍ، الفتاة برناديتّ، التي جثت على ركبتيها، تجلّةً ورهبةً.

التمست برناديتّ غوث السماء وأنوارها، وبحركةٍ لاشعوريّةٍ مدّت يدها إلى جيب مئزرها، فعثرت على المسبحة التي طالما أشاعت في نفسها الطمأنينة في الليالي التي كانت نوبات الربو ترهقها. وتلقائيًّا، حاولت رسم إشارة الصليب. ولكنّ يدها تجمّدت بغتةً، ثمّ هبطت عاجزةً عن إتمام رسم الإشارة. وجهدت، كرّةً أُخرى، في إتمام رسمها، ولكنّ يدها لبثت مرخيّةً، فاقدة الحول والطاقة، مع أنّها لم تفقد الإحساس بحبّات المسبحة الخشبيّة تحت أناملها.

انقلبت دهشة برناديتّ خوفًا، وأخذت يدها ترتجف. وحينئذٍ تحرّكت يد الطيف السماويّ، ونفّذت إشارة الصليب التي فشلت برناديتّ في إتمامها. وعلى غرارها ارتفعت، تلقائيًّا، ذراع برناديتّ، ورسمت إشارة صليبٍ عريضةً،

فبارحها كلّ خوفٍ، وحلّ مكانه فرحٌ غامرٌ. ثمّ تلت المسبحة، وهي تتأمّل الفتاة السماويّة التي كانت أناملها تمرّ فوق حبّات مسبحتها، وشفتاها لا تتحرّكان. الصلاة والتأمّل كانا يأتلفان لديها ائتلافًا رائعًا، والوقت يمضي، ثابتًا، وكأنّها في أبديّةٍ صغيرةٍ. ولمحتها رفيقتاها، وهي على هذه الحال، فعلّقتا ساخرتَيْن: «إنّه لجنونٌ صلاتها في هذا المكان! ألا يكفي أن تصلّي في الكنيسة؟»

عقب فراغها من تلاوة المسبحة أومأت لها الزائرة السماويّة، داعيةً إيّاها إلى الاقتراب منها، ولكنّها لم تجسر، فاختفت الزائرة، بغتةً، مخلّفةً وراءها سحابة نورٍ ما لبثت أن تلاشت، ولم تعد برناديتّ ترى سوى صخرةٍ سوداء، وسماءٍ واطئةٍ ملبّدةٍ بالغيوم، مكفهرّةٍ، وهطلِ رذاذٍ خفيفٍ. ولكنّ كلّ ذلك لم يعُدْ له أيّ أثرٍ عليها، فقد تحرَّرت من كلّ قلقٍ كان يخامرها قبل الرؤيا، وامتلأت بسنى ما رأت، فتجرّأت، وخلعت جوربها الآخر، واجتازت النهر، مقاومةً التيّار الذي كان يدفعها. ثمّ جلست على صخرةٍ عند ضفّة النهر الأُخرى، كي تلبس جواربها ثانيةً. وحينئذٍ عادت رفيقتاها

آتيتين بحملٍ وفيرٍ من الحطب، وبسلّةٍ ملأى بالعظام، وأَخذتا ترقصان كي تظفرا بشيءٍ من الدفء، فشقّت على برناديتّ رؤيتهما تعبثان على هذا النحو، في مكانٍ باتت لا تطأه إلاّ باحترامٍ جمٍّ، وكأنّها في حَرَم كنيسة. ودعت رفيقتيها إلى التزام الصمت والوقار، وسألتهما هل شاهدتا شيئًا، فتوقّفتا عن عبثهما، وهما دهشتان من خوضها ماء النهر الصقيعيّ، عقب تردّدٍ طويلٍ، ومن عدم إظهار أَيّ تأثّرٍ بالبرد، وأَجابتا:

– نحن لم نرَ شيئًا. فما الذي رأيته أَنتِ؟

حينئذٍ أَخذ بها الندم على طرحها سؤالاً قد يوحي بما كانت عازمةً على إخفائه. فغيّرت سياق الحديث، وقالت:

– «يا لكما من مهرّجتَيْن! فقد ادّعيتما أَنّ ماء النهر صقيعيّ، وأَنا وجدته لطيفًا»

لقد استسلمت برناديتّ لنزعة النفوس المتواضعة إلى إخفاء النِعَم الخاصّة التي يميّزها بها الربّ، ثمّ أَجابت على سؤال رفيقتيها:

– بما أَنّكما لم تريا شيئًا، فليس لديّ ما أُخبركما به.

غير أنّها لم تحسن تمويه اضطرابها وتأثّرها، فارتابت رفيقتاها بأنّ أمرًا حدث لها. وما إن انفردت بها أُختها، في طريق العودة، حتّى بادرتها بالسؤال:

– «بوحي لي بما رأيتِ، لي فقط. وإنّي أَعدك بألاّ أُطلع أَحدًا، حتّى أُمّنا».

اطمأنّت برناديتّ إلى وعد أُختها، فأَوجزت لها ما رأت، بكلمتين.

هذا البوح شحذ خوف أُختها «توانيتّ» وحسدها. فبرناديت هي الكبرى، وهي، حسب التقاليد، «الوريثة»، ويخصّها والداها بلبس الجوارب، من جرّاء إِصابتها بالربو، وبتناول الخبز الأَبيض، من جرّاء هشاشة معدتها. فسارعت إِلى إِفشاء السرّ الذي وعدت بكتمانه، وأَخبرت أُمّها أَنّ برناديتّ رأت فتاةً بيضاء مجهولةً، في مغارة مسّابييل. وهتفت الأُمّ:

– «أَما كفانا الطرد، والتشرّد، والإِفلاس، والسجن؟ أَيّة كارثةٍ أُخرى ستحلُّ بنا!».

ثمّ تصنّعت الهدوء كي تستجوب برناديتّ التي تجمّدت الكلمات في حنجرتها. ولم تحتفظ والدتها، من أقوالها، إلاّ بلفظة «بيضاء»، فهي لم ترَ، في كلّ تلك الراوية، سوى أضغاث أوهامٍ. فتناولت عصًا، وهوت بها على ابنتيها كلتيهما معًا، وهي تقول لبرناديت:

– «أنتِ لم تري شيئًا سوى حجَرةٍ بيضاء! أنتِ واهمةٌ، وأنا أمنعك من العودة إلى ذلك المكان!».

شقّ هذا الحظر على برناديتّ التي لم تكن لديها أُمنيةٌ أغلى من العودة إلى المغارة، ورؤية ما كانت قد رأته، أُمنيةٌ ما انفكّت تتعاظم، يومًا فيومًا. وفي أثناء صلاة المساء، اجتاحها شعورٌ عذبٌ آسرٌ، فراحت تبكي تأثّرًا. استوضحتها والدتها عن سبب بكائها، فلم تستطع الإجابة. وفي الغداة شدّها إلى المغارة جاذبٌ تتعذّر مقاومته. ولكنّ والدتها حالت دون رغبتها في الشخوص إليها، وأمرتها بالانصراف إلى العمل، فخضعت. وفي الأيّام التالية أقلعت عن ذكر المغارة، حتّى خُيِّل إلى والدتها أنّ الأمر طواه النسيان.

ومساء السبت، ١٣ شباط، كان الأَب «بوميان» يسمع الاعترافات كما اعتاد في مساء كلّ سبتٍ، وإذ بآخر زائرٍ لكرسيّ الاعتراف فتاةٌ تقول له، بلا مقدّماتٍ:

– لقد رأيت جسمًا أَبيض له شكل سيّدة!

ترك الكاهن الفتاة تتكلّم، غير مهتمٍّ، بادئ الأَمر. ولكن سرعان ما لفتت انتباهه نبرة صدقها، وترابط حديثها، وأَثّر فيه قولها «مثل هبوب ريحٍ» الذي ذكّره بعبارة سفر أَعمال الرسل، في وصف حلول الروح القدس. غير أَنّه اقتصر على سؤال المعترفة:

– «هل يمكنني إِطلاع الكاهن المسؤول عن الرعيّة، على ما رويته لي؟»

وافقت برناديتّ، وهي مستغربةٌ استئذان الكاهن لها، الذي ينمّ، في نظرها، عن احترامٍ لم تعهد له مثيلاً، من قبل.

في ذلك المساء نفسه، التقى الأَب المعرّف، كاهن الرعيّة،

الأَب «پيرامال» وروى له، بإيجازٍ شديدٍ، ما سمعه من الفتاة، فأَجابه:

– «لننتظر، ونرَ!».

وانتقل حديثهما إِلى شؤونٍ أُخرى.

غير أَنّ شقيقة برناديتّ ورفيقتها اللتين كانتا معها، لدى رؤياها الأولى في مغارة مسّابييل، كانتا قد أَشاعتا النبأ، فعزمت طائفةٌ من أَترابهنّ الفقيرات، ذوات الثياب المرقّعة، أَن يمضينَ، في أَعقاب قدّاس الأَحد، ١٤ شباط، لرؤية ما رأت برناديتّ.

الظهور الثاني: ١٤ شباط ١٨٥٨

كان طقس يوم الأَحد، ذاك، رائعًا. وحرَّضت برناديتّ شقيقتَها وصُوَيْحباتها على إِقناع أُمّها، كي تأذن لهنّ بالعودة إِلى المغارة. وكانت الفتيات نهبًا بين الفضول والخوف، خوفٍ من كون الطيف الذي ظهر لبرناديت شرّيرًا، مؤذيًا. ولكنّ برناديتّ أَكّدت لهنّ أَنّ كائنًا في مثل جمال «السيّدة» التي رأتها، وفي مثل رقّتها، لا يمكن أَن يكون شرّيرًا. واتّفقنَ على استحضار ماءٍ مقدّسٍ ترشّه برناديتّ على ذلك الكائن، تفاديًا لكلّ مكروهٍ غير متوقّعٍ.

استسلمت الوالدة لإِلحاح الفتيات، بعد لأيٍ، وبعد أَن تعهّدنَ بالتزام الحيطة، وبالعودة قبل صلاة الغروب، فوافين المغارة، وشرعن بتلاوة المسبحة. ولمّا بدأت برناديتّ تلاوة البيت الثاني منها، أَشرق وجهها، وتجلّى، فهتفت: «ها هي

ذي!... مسبحتها في يدها، وهي ترنو إليكنّ...» ولكنهنّ لم يرينَ شيئًا.

ورشّت برناديتّ شخص الظهور بالماء المقدّس، مستحلفةً إيّاه أن يتقدّم إن هو كان قادمًا من قِبَل اللّه، وإلاّ أن يرحل.

كان وجه السيّدة يُشرق، وابتسامتها تتّسع، كلّما رشّتها برناديتّ بالماء المقدّس، وما انفكّت تخطو إلى الأمام، حتّى انتهت إلى حافّة الصخرة. ثمّ توارت، فكسا وجه برناديتّ الشحوب، ولكنّها بدت سعيدةً، وسرّبت سعادتها الاطمئنان إلى قلوب رفيقاتها، طاردةً ما انتابهنَّ من قلق.

ظلّت برناديتّ جاثيةً، وقد اعتراها انخطافٌ استمرّ طويلاً، وهي رافعةٌ عينيها صوب السماء، غائبةٌ عن الدنيا، لا تتحرّك، ولا تسمع شيئًا. وقد جهدت صُوَيْحباتها في إنهاضها، وإبعادها عن المكان، ولكن تعذّرت عليهنّ زحزحتها، إذ أَضحت ثقيلةً ثقلاً مذهلاً. فاستعنّ بصاحب مطحنةٍ قريبةٍ، كان قد اعتاد حمل أَكياس الدقيق، وكأَنّها أَكياس قطنٍ. غير أنّه لقي مشقّةً في إنهاض تلك الفتاة البادية

الهزال والهشاشة. ثمّ حملها إلى مطحنته. وعيناها ما برحتا محدّقتَيْن إلى فوق، وكأنّها مأخوذةٌ بتأمّل مشهدٍ لا يراه سواها. وقد شهد الرجل لاحقًا: «وضعت يدي على عينيها، وحاولتُ ثني رأسها، ولكنّها كانت تعود فترفعه، وتفتح عينيها وتبتسم».

وسرعان ما ذاعت، في لورد، أخبار ما جرى في مغارة مسّابييل، وشرع القوم يتقاطرون إلى منزل فرنسوا سوبيروس، لاستجواب برناديتّ. فكانت أجوبتها، دائمًا، واضحةً، ودقيقةً، وكان صدقها وبراءتها مقنعَيْن، مؤثّريْن.

والداها، مع يقينهما بصدقها، كانا مرتابَيْن في أمر الظهور، الذي ظنّاه وهمًا وخيالاً. غير أنّ نبرة صدق ابنتهما كانت تهزّهما أحيانًا.

ولم يكن الوضع كذلك في مدرسة الراهبات التي كانت برناديتّ تختلف إليها. فرئيسة المدرسة انهالت عليها بالتأنيب الفظّ، وقابلتها بالاستهزاء. وصفعتها معلّمةٌ اشتهرت بقسوتها، صفعةً ألهبت وجهها طويلاً. واستفاضت رفيقاتها

في رواية ما شاهدنَ، ذاكراتٍ القليل من الحقائق، والكثير ممّا اختلقه خيالهنّ. وكانت برناديتّ تجهد في تكذيب ما ينبغي تكذيبه، وتصويب ما يتعيّن تصويبه، نادمةً على كونها لم تحتفظ بالأَمر كلّه لنفسها، سرًّا مكتومًا.

الظهور الثالث: ١٨ شباط ١٨٥٨

تنامى نبأ الظهورات إلى السيّدة «ميليه» (Milhet)، وهي أَرملةٌ في الخمسين من العمر، كانت خادمةً، وتزوّجت مستخدِمها، وورثت منه ثروةً طائلةً. وكان قد خيّل إليها أَنّ السيّدة التي تظهر لبرناديت ما هي إلاّ الآنسة «إليزا تابي» التي كانت منتسبةً إلى أَخويّة «بنات مريم»، وقد تميّزت بتقواها وقداسة سيرتها، وتوفّيت حديثًا، ميتة الأَبرار. ولكي تتحقّق من حدْسها هذا، أَوفدت خيّاطتها «أَنطوانيت بيريه»، وهي ابنة مُحضِر محكمة لورد، إلى والدة برناديتّ، كي تتّفق معها على استصحاب ابنتها إلى مغارة مسّابييل، سرًّا. ولهذه الغاية تزوّدت الآنسة «بيريه» بأَدوات كتابةٍ من قرطاسٍ، وريشةٍ، ومحبرةٍ.

وفي فجر الثامن عشر من شباط، قرعت السيّدة «ميليه»

وخيّاطتها، باب منزل آل سوبيروس، فأيقظتا برناديتّ، ويمَّمْن معًا صوب المغارة. ولمّا دنونَ منها، وفيما كان التعب قد أعيا رفيقتيها، المتصبِّبتين عرقًا، طارت برناديتّ طيرانًا، متوثّبةً كالغزالة فوق الصخور، على الدرب الهاوي الذي اضطُرِرنَ إلى انتهاجه، إذ إنّ المطحنة المحاذية للمغارة كانت قد استأنفت نشاطها، وعلا مستوى الماء في النهر، ولكأنّ الربو الذي كان، آنفًا، يعرقل سير برناديتّ، ويجعل تنفّسها عسيرًا، قد تلاشى فجأةً، فظلّ وجهها، رغم جريها، مرتاحًا، نقيًّا، ساكنًا. كانت تهبط الصخور الزلِقة، للمرَّة الأولى، وكأنّها اعتادتها منذ سنواتٍ، وكأنّها تعدو فوق أرضٍ منبسطةٍ، ولكأنّ توقها إلى المغارة وإلى الزائرة السماويّة كان يزوّدها بأجنحةٍ.

سبقت برناديتّ مرافقتيها، فركعت، وشرعت تتلو المسبحة، وهي ترنو إلى الصخرة المنيعة على مدخل المغارة. وبغتةً انطلقت منها صرخةٌ، فقد استضاء صدر المغارة بنورٍ سماويٍّ، وناداها صوتٌ عذبٌ. كان الطيف السماويّ الرائع، على بُعد خطواتٍ، فوق رأسها، كما لم يكن، قطّ، بمثل

هذا القرب. وانحنت عليها السيّدة، وقد أَشعّ وجهها بسجوٍّ وجلالٍ فائقين، وبإيماءةٍ من يدها، دعتها إِلى الاقتراب.

ووصلت مرافقتاها، فشاهدتا ملامحها، وقد تجلّت عليها أمارات الانخطاف. وشعرت بوجودهما، فقالت: «إِنّها هنا، – هي تشير إِليّ أَن أَدنو منها». فقالتا لها:

– «اسأليها هل هي غاضبةٌ بسبب وجودنا معك. وإِن كان لا يروق لها ذلك، فسننسحب».

حدَّقت برناديتّ إِلى العذراء، التي لم يكن يراها سواها، وأَصغت إِليها لحظةً، ثمّ التفتت إِلى مرافقتيها قائلةً:

– «يمكنكما المكوث معي».

فركعت المرأتان، قريبًا من الفتاة، وأَشعلتا شمعةً كانتا قد جاءتا بها. وكانت تلك الشمعة الأولى التي تُشعَل في ذلك المكان الموحش. ذلك الفعل البسيط كان يرتدي رمزًا رفيعًا، بل كان إِيذانًا بمزارٍ سيصبح قبلة حجّ الملايين على مدى القرون. وسيظلّ إِيمان الشعوب يغذّي تلك الشعلة، تكريمًا للربّ، ولأُمّه كلّيّة القداسة، إِلى الأَبد.

وقالت المرأتان، ثانيةً، لبرناديت:

– بما أنّها تدعوك، فاقتربي منها، واستوضحي هويّتها، وسبب حضورها، وما تقتضيه منّا. فربَّما كانت نفسًا قادمةً من المطهر، ملتمسةً صلواتنا. واطلبي منها أن تدوّن، على هذه الورقة، رغباتها، كي نحقّقها لها كلّها.

وتقدّمت برناديتّ، حاملةً المحبرة، والريشة والقرطاس؛ وكانت السيّدة السماويّة ترمقها بعطفٍ. ولكن، كلّما خطت الفتاة خطوةً نحوها، كانت السيّدة تتراجع خطوةً داخل المغارة. وبعد أن توارت، لحظاتٍ، تراءت ثانيةً، في صدر المغارة، على مقربةٍ لم تعهدها برناديتّ من قبلُ، مشعّةً بالنور.

ارتقت الفتاة على أطراف قدميها،كي تناول السيّدة السماويّة أدوات الكتابة، ودنت المرأتان، أملاً في استراق السمع إلى الحوار الذي سيدور بين الزائرة والرائية. ابتسمت السيّدة لدى سماعها الرسالة، ولكنّها أجابت، برقّةٍ:

– لا حاجة بي إلى الكتابة. ولكن هل ستتفضّلين وتوافين

إلى هنا، مدى خمسة عشر يومًا. وأنا أَعدك بأَن أَهبك السعادة، لا في هذه الدنيا، بل في الآخرة.

لكم تأثّرت برناديتّ بهذه اللهجة الحافلة بالاحترام، وبهذا الوعد الثمين! ولا سيّما أنّها كانت تسمع، للمرَّة الأولى، صوت السيّدة «الرقيق والعذب».

باندفاعٍ، ومن غير إِعمال فكرٍ، وعدت بالمجيء إِلى المغارة، على امتداد خمسة عشر يومًا، غير حاسبةٍ للعواقب أَيّ حسابٍ. والتمست مرافقتاها استيضاح السيّدة إِمكانيّة مواكبتهما لها طيلة الخمسة عشر يومًا. فرحّبت الزائرة السماويّة لا بحضورهما فقط، بل، أَيضًا، بحضور خلقٍ كثيرٍ. وفيما كانت تتلفّظ بهذا الجواب، توارت مخلّفةً نورًا سماويًّا تلاشى، رويدًا رويدًا. كان النور يعلن عن مجيئها، ويلحق بها، ببطءٍ، في إِيابها.

في طريق العودة استفسرت السيّدة «ميليه» برناديتّ هل هي توسّمت، في الزائرة السماويّة، ملامح «إِيليزا تابي»، فأَومأت الفتاة برأسها، نافيةً. وحينئذٍ، قالت السيّدة «ميليه»:

«ربّما هي، إذن، السيّدة العذراء!». وهوى قولها في ثنايا الصمت.

وتبرّعت السيّدة «ميليه» بتسهيل تنفيذ وعد برناديتّ بالشخوص إلى المغارة على مدى خمسة عشر يومًا. وتعهّدت باقتيادها إلى مسّابيبل، والعودة بها، بلا عائقٍ، ولا ضجيجٍ. ولم يكن عسيرًا عليها انتزاع موافقة أُمّها على استضافة برناديتّ في بيتها، فقد كانت لويز سوبيروس، تعمل، بين حينٍ وآخر، في منزل السيّدة «ميليه». غير أَنَّ برناديتّ، التي أَذهلها، للوهلة الأولى، ما شهدته في منزل مضيفتها من بذخٍ ورفاهٍ، ونالت فيه، من الطعام، كلّ ما طالما حُرِمت منه، وبكمّيّاتٍ وافرةٍ، سرعان ما أَحسّت بالغربة، وآثرت العودة إلى فقر منزل والديها، حيث تعهّدت والدتها وخالتها بمرافقتها، يوميًّا، إلى موعدها مع ملكة السماء.

أُسبوعا الظهورات:
من ١٨ شباط حتّى ١٤ آذار ١٨٥٨

أَذاعت السيّدة «ميليه»، في لورد، وفي القرى المجاورة، نبأ ما جرى في ١٨ شباط. وعندما وافت برناديتّ إِلى المغارة، صباح يوم التاسع عشر والعشرين من شباط، كان العشرات قد سبقوها إِليها. وفي يوم الأَحد الواقع في ٢١ شباط، تجاوز عدد الذين احتشدوا في المغارة وفي جوارها، المئات. ما كانوا يرون ويسمعون سوى فتاةٍ فقيرةٍ، بسيطةٍ، جاهلةٍ، تصلّي، وتخبر بما ترى وتسمع. انعكاس السماء عليها كان جليًّا، ونفحة الروح كانت تعتمل في القلوب والنفوس.

وبات مدار حديث الجميع، في كلّ وقتٍ وكلّ مكانٍ، المغارة وما يجري فيها. وقبل أَن تُفصح العذراء عن هُويّتها، كان القوم قد تعرّفوها، بحدْس إِيمانهم الصائب.

غير أَنّ مدّعي العلم، وأَعداء الدين، استنكروا، وأَنحوا باللوم والسخرية على من انساقوا وراء ما عدّوه مهزلةً سخيفةً، وما زعموه خرافةً. بعضهم استجوبوا الفتاة، فجاءت إجاباتها بسيطةً، واضحةً، لا تناقض فيها، ولا مراوغة، بيّنة المصداقيّة. والذين أَبوا الإِيمان، مع كلّ ذلك، اتّهموها بالهلوسة، وبالمرض النفسي. لم يتكلّم أَحدٌ منهم عن تمثيلٍ أَو احتيالٍ، فمثل هذه المزاعم، لم تكن تستطيع الصمود أَمام بساطة الفتاة، ونبرة صدقها، ونقاء سيرتها، وقناعتها بفقرها.

كانوا يدّعون أَنّ مجرّد اهتمامهم بتلك الظاهرة إِهانةٌ لعقولهم وللعلم، فيصدرون أَحكامهم المبرمة، بمنأًى عن كلّ مراقبةٍ وتمحيصٍ.

والتزم الإِكليرُس التحرّز والحيطة. كان قد بوغت بالحدث، ولكنّه توقّع كلّ الاحتمالات. كانت الفتاة مجهولةً لديه، ولم يكن أَحدٌ قد لحظها، حتّذٍ. حتّى الأَب بوميان، المكلّف بإِعدادها للمناولة الأولى، لمّا ابتغى تعرّفها، ذكر اسمها في أَثناء أَحد الدروس، وأَمرها بالنهوض، فلم يلحظ سوى فقرها المدقع، وجهلها الذريع لأُمور الدين.

كاهن الرعيّة، الأَب پيرامال، كان في الخمسين، قاسي الطباع، عنيفًا في التماسه الخير والحقّ. كانت النعمة قد صقلته، ولكنّها لم تغيّر طبيعته التي تقرن الطيبة بالقسوة، والتي لا تهادن مع الشرّ والخطأ والكذب. كان زاهدًا، كريمًا، ينفق كلّ موارده، مع ضآلتها، على مساعدة المحتاجين، فأَصبح الفقراء هم الأَكثر حبًّا وتقديرًا له.

كان له قلب رسولٍ، ويتمتّع بحكمٍ سديدٍ، وحزمٍ لا يلين، حيال كلّ ما يتعلّق بالحقيقة. وكان وجوده في لورد، حينئذٍ، تدبيرًا من العناية الإلهيّة. فآثر التريّث، وظلّ يراقب عن بعدٍ، وأَمر مساعديه بالسلوك على غراره، حتّى الوقوف على أَدلّةٍ دامغةٍ، تؤيّد الظاهرة أَو تدحضها. كلّف علمانيّين مشهودًا لهم بالاستقامة وسداد الحكم، بمراقبة كلّ ما يجري عن كثبٍ، وإطلاعه، يومًا فيومًا، وساعةً فساعةً، كلّما احتشد القوم حول برناديتّ، في مغارة مسّابييل، وفي جوارها. وحرص ألاّ يتورّط الإكليرُس في هذه القضيّة، قبل تبيّن حقيقتها.

كان حريصًا على ألاّ تقع الكنيسة ضحيّة خداعٍ، وفي الآن

عينه، على أَلاّ يدلي بقرارٍ متسرّع مبتسرٍ، يفضي إلى عرقلة عمل اللّه، وإطفاء أنوار الروح. في هذه الأثناء كانت تتكاثف الجموع المتدفّقة إلى مغارة مسّابييل، كي تصلّي للعذراء في خشوعٍ وإيمانٍ، وتوسّلٍ، ولسان حال كاهن الرعيّة يقول: «إن كانت هذه الأُمور من اللّه، فهي ليست في حاجةٍ إلى دعمنا، فسيعرف القدير تخطّي كلّ العقبات، بمعزلٍ عن مساعدتنا، وسيوجّه الأَحداث وفق مراميه. وإن لم تكن من اللّه، فهو سيحدّد الأَوان الذي يتعيّن علينا، فيه، التدخّل لمناهضتها، باسمه. وإذن، فلندع العناية الإلهيّة تقوم بعملها».

غير أَنّه، بالاتّفاق مع الأُسقف، ترك للمؤمنين حرّيّة المثول إلى المغارة، والصلاة فيها، وفقًا لما يوحيه لهم ضميرهم. فلا تشجيع، ولا حظر.

كان شاقًّا على الكهنة البقاء بعيدين عن حركةٍ جماعيّةٍ جبّارةٍ، وعن ظاهرةٍ كانوا يشعرون، في قرارات نفوسهم، أَنّها ستكون بعيدة الأَثر. غير أَنّ التزامهم بالحياد كان تأكيدًا بأَنّ ما يحدث كان عملاً إلهيًّا صرفًا، ولا سيّما أَنّ الأَحداث

كانت تجري في وَضَح النهار، تحت أَنظار غير المؤمنين بها، الذين كافحوها بكلّ ما تيسّر لهم من وسائل، ومع ذلك لم يتوفّقوا إِلى القضاء عليها، لأَنّها كانت قائمةً على أُسس الحقيقة الخالدة. وكان عداؤهم الذي فشل في إِصابة غرضه، شهادةً على عملٍ إِلهيٍّ فائقٍ.

السلطات المدنيّة، أَيضًا، كانت تراقب حدَثًا يكتسب، كلّ يومٍ، اتّساعًا، ويتخطّى حدود سلطاتها. فقد أَخذت مواكب الحجّاج تؤمّ لورد، من كلّ أَرجاء فرنسا وأوروبّا. وبما أَنّ معظم المسؤولين الحكوميّين كانوا غير مؤمنين، فقد أَخذوا يتدارسون وسائل صدّ حركة الحجّ، هذه، المتصاعدة باطّرادٍ، ويرتجلون التدابير الآيلة إِلى هذه الغاية. فهم لا يطيقون رؤية تعاظم التأثير الدينيّ، من جرّاء تخوّفاتٍ دفينةٍ، أَو عداءٍ سافرٍ.

ولا مراء أَنّ كلّ ظاهرةٍ فائقة الطبيعة تلقى مناصرين ومناوئين، ولا مبالين، وغالبًا ما تلقى معاداة السلطات الرسميّة.

في لورد، كان مفوّض الشرطة، السيّد جاكوميه، شابًّا

حصيفًا في بعض المناسبات، خطيبًا مفوّهًا، ماهرًا في كشف ألاعيب الأشرار، ولكن عاجزًا عن فهم المستقيمين، وضعيف الحيلة حيال البسطاء. كانت الحقيقة تحيّره، والصدق يفتّ من عضده، ويعذّب فكره الساعي، دائمًا، إلى اكتشاف الكذب والخداع. كان يرى، في القداسة، أفظع أنواع الدجل. كان عبقريًّا مع الأشرار، وأحمق في تعامله مع المستقيمين الصادقين.

ظهورات ٢١ شباط ١٨٥٨

كان ذاك هو اليوم الثالث من الأَيّام الخمسة عشر، والأَحد الأَوّل من الصوم الكبير. قبل بزوغ الشمس، كان آلافٌ من الناس قد تجمهروا في المغارة، وعلى ضفاف النهر. قدمت برناديتّ، في موعدها المعهود، برفقة أُمّها. وأَفسح لها الجمهور ممرًّا، فجاءت وركعت في مكانها المعتاد، تحت الصخرة المطلّة على مدخل المغارة، وكأَنّها لم تُعِر اهتمامًا لكثافة الحشود، وكأَنّها تقوم بعملٍ روتينيٍّ بسيط.

وما هي سوى لحظاتٍ حتّى أَشعّ جبينها بنورٍ سماويٍّ، وعرا الشحوبَ وجنتيها، ودلّت جميع ملامحها على دخولها منطقةً عليا، وموطن مجدٍ. وافترّت شفتاها عن دهشةٍ، وإِعجابٍ، وصبوٍّ إِلى السماء. عيناها اللتان ارتسمت عليهما سعادةٌ سماويّةٌ، كانتا تحدّقان إِلى جمالٍ لم يكن يراه سواها،

ولكن يشعر الجميع بحضوره، ويشهدون انعكاسه على محيّاها. تلك الفتاة القرويّة، التي لم تكن، في حياتها اليوميّة، تستلفت انتباه أحدٍ، بدت كأنّها أضحت من سكّان عالمٍ آخر، ملاكَ براءةٍ، تغرَّب عن الأرض، وهاجر إلى الفردوس. ومع ذلك كانت تعي كلّ ما يحدث من حولها. فقد اتّفق أن انطفأت شمعتها، فمدّت يدها إلى الجالسين بقربها، لعلّ أحدًا منهم يُعيد إشعالها. وعندما لحظت أنّ أحد الموجودين يحاول لمس غصن شجرة النسرين بعصاه، أشارت عليه، بحزمٍ، ألاّ يفعل. وقد فسّرت، لاحقًا، حركتها هذه، بقولها الساذج: «خشيتُ أن يصيب «السيّدة» بعصاه».

وكان الدكتور «دوزو» يقف إلى جانبها، فتسنّى له أن يتأكّد من كذب كلّ ما نسب إليها، جزافًا وافتئاتًا، من مرضٍ عصبيٍّ، وهلوسةٍ. فقد جسّ نبضها، ولم تلحظ هي ذلك. وكان نبضها طبيعيًّا، كما هو في الحالات العاديّة.

وشوهدت برناديتّ تزحف على ركبتيها، إذ كانت العذراء قد تراجعت إلى الوراء، وكانت الفتاة تراها من خلال فرجةٍ

داخل المغارة. وشاهدتها تجيل أَنظارها إِلى الأَرض كلّها، ثمّ تحطّها، مفعمةً حزنًا، على الفتاة الراكعة أَمامها، والتي سألتها:

– ما بكِ؟ وما الذي يتعيّن علينا فعله؟

فأَجابت الأُمّ السماويّة:

– الصلاة من أَجل الخطأة.

طعنةٌ موجعةٌ أَصابت قلب الرائية الصغيرة عندما شاهدت الأَلم يغشى، مثل سحابةٍ، محيّا العذراء، الذي عهدته دائم السجوّ والصفاء، واعتراها حزنٌ يتعذّر وصفه، وكرّت من عينيها الشاخصتين إِلى الطيف السماويّ دمعتان استقرّتا على وجنتيها.

وما لبثت قسمات وجهها أَن استعادت إِشراقها. ولا ريب أَنّ العذراء، في هذه الأَثناء، كانت قد التفتت إِلى منبع الرجاء المتدفّق من قلب الآب، وتأمّلت دفق الرحمة اللامحدودة التي تفيض منه على العالم، باسم يسوع.

وفي تلك اللحظة توارى الطيف السماويّ، عائدًا إلى موطنه الأَبديّ. وفيما كان النور الذي خلّفه الظهور يتلاشى، شيئًا فشيئًا، كانت برناديتّ تؤوب من موطن الشمس إلى ظلال الأَرض، ويستعيد محيّاها، الذي كان متجلّيًا قُبَيْل لحظاتٍ، ملامحه العاديّة. وإذ بها، من جديدٍ، قرويّةٌ صغيرةٌ متواضعةٌ، لا تختلف، ظاهريًّا، عن أَترابها القرويّات.

ومن حولها كان يتراصّ جمهورٌ لاهثٌ، قلقٌ، خاشعٌ، يضجّ تأثّرًا.

الذين شاهدوا برناديتّ، في حالة الانخطاف، لم يعد يساورهم أَيّ شكٍّ في صحّة الحدث السماويّ. ففي تلك اللحظات الفريدة، يغدو وجهها نقيًّا، متجلّيًا، متألّقًا، مشعًّا بنورٍ سماويٍّ، هو انعكاس بؤرة نورٍ إلهيٍّ.

عقب صلاة الغروب، مساءَ ذلك اليوم، تحلّق القوم حول برناديتّ، وأَغرقوها بأَسئلتهم واستفهاماتهم، التي كانت تجيب عليها ببساطةٍ وثقةٍ. وإذ برجل أَمنٍ يربّت على كتفها، ويأمرها بمرافقته إلى مكتب مفوّض الشرطة.

ورأى الجمع، في ذلك العمل، تدنيسًا لشيءٍ مقدّس، وهمّوا بمنع رجل الأمن، عنوةً، من اقتياد الفتاة. غير أنّ كاهنًا كان خارجًا من الكنيسة أشار إليهم بما يعني: دعوا السلطات تفعل ما تراه مناسبًا.

رفيقاتها قلنَ:

– يا للمسكينة، سيزجّون بها في السجن!

ولكنّها أجابت:

– أنا لست خائفةً، فحتّى إن سجنوني، سيُطلق سراحي.

وتجمهر الفضوليّون، وتبعوا الفتاة والمفوّض، الذي أوقفهم جميعًا عند عتبة مقرّه، وردّهم، مانعًا حتّى ذوي برناديتّ من الدخول.

كان المفوّض شديد الاعتداد بذكائه. وظنّ أنّه سيتمكّن، بكلّ يسرٍ، من وَأْد الحدث في مهده، بالمكر أو بالعنف. كان قد اطّلع على مشاهدات الجموع في المغارة، وعلى أقوال الدكتور «دوزو»، واستبعد احتمال الهلوسة والمرض العقليّ

الذي تذرّع به مدّعو العلم، ولكنّه كان يستبعد، أَيضًا، كلّ عملٍ فائق الطبيعة. وخُيّل إِليه أَنّ الإِكليرُس هو الذي دبّر كلّ تلك الخدعة، وأَنّه، بفضحها، سيفضح كلّ ما كان الناس يؤمنون به من أُمورٍ خارقةٍ، فائقة الطبيعة.

وخضعت برناديتّ للاستجواب الرسميّ الأَوّل، الذي أَثبت بساطتها وصدقها. ولكن، بما أَنّ المفوّض كان يتخيّل أَنّ وراء الفتاة من يدفعها، لغايةٍ ما، فقد حاول استدراجها إِلى الاعتراف، فسألها:

– أَنتِ، إِذن، تشاهدين السيّدة العذراء؟

– أَنا لم أَقل إِنّني أُشاهد السيّدة العذراء!

– إِذن، أَنتِ لم تشاهدي شيئًا.

– بل رأيت شيئًا!

– ماذا رأيتِ، إِذن؟

– رأيت شيئًا أَبيض.

وازداد المفوّض ارتباكًا، فسأل:

– هل هو شيءٌ أَم شخصٌ؟

– «ذاك» أو «تلك» (هكذا كانت برناديتّ تسمّي سيّدة الظهور، مستخدمةً لفظة «كويرو» (Quero) له شكل آنسة».

استخدامها لفظة «ذاك» أو «كويرو» كان ينمّ عن حيطةٍ ريفيّةٍ فطريّةٍ، للدلالة على ما تجهل هويّته، وعن إجلالٍ لواقعٍ يتعذّر وصفه، ويتخطّاها.

ازداد المفوّض ارتباكًا، ولكنّه استأنف استجوابه:

– «تقولين «ذاك». وأَلم يقل لك «ذاك»: «أَنا العذراء»؟

– لا، لم يتلفّظ لي «ذاك» بهذا القول!

– ولكن هذا هو ما يُشاع في المدينة.

في الواقع هذا ما كان يُشاع. وهذا ما نشرته صحيفةٌ محلّيّةٌ، بقلم محامٍ، وفي كثيرٍ من السخريّة والافتراء.

وذكّر المفوّض بكلّ ما رُوي، منذ البدء، وتابع استجوابه:

– هل كان معك فتياتٌ أُخرياتٌ، عندما رأيت؟

– نعم، سيّدي.

– وهل رأينَ، هنّ، أَيضًا؟

– كلاّ يا سيّدي!

– وكيف عرفت ذلك؟

– هنّ قلنَ لي.

– ولماذا لم يرينَ؟

– لست أَدري!

تدرّع المفوّض بالصبر، لعلّه يعثر على ثغرةٍ تدين الفتاة، وتابع:

– وماذا كانت ترتدي تلك الفتاة... تلك الآنسة؟

– ثوبًا أَبيض، يشدّه شريطٌ أَزرق، وعلى رأسها وشاحٌ أَبيض، وعلى كلّ قدمٍ من قدميها وردةٌ صفراء، بلون سلسلة مسبحتها.

– وهل لها قدمان؟

– ثوبها الطويل والورود كانت تخفي قدميها، فلم أَلحظ سوى أَصابع القدَمين.

– وهل لها شعرٌ؟

– يُرى القليل منه... هنا

ووضعت برناديتّ أَصابعها عند صدغيها، ورسمت خطّين متوازيين.

– وهل هي جميلةٌ؟

– آه! يا سيّدي. ما أَجملها!

– تشبه مَن، في جمالها؟ (وذكر المفوّض أَسماء جميلاتٍ محلّيّاتٍ معروفاتٍ)

– لا مجال للمقارنة!

– وما عمرها؟

– .... فتيّةٌ.

واستفسر المفوّض عن سائر الأَشخاص الذين كان لهم

بالقضيّة علاقة. واستوقفه اسم السيّدة «ميليه»، التي كان يعرف مهارتها، وظنّ أنّه وقع على أَثرٍ هامٍّ، فسأل:

– وهل هذه السيّدة هي التي أَشارت عليك بما ينبغي عمله؟

– كلاّ.

– ولكنّك تسكنين في منزلها!

– كلاّ، فقد عدت إِلى بيت والديّ، أَمسِ.

– لماذا؟

– لم تشأ خالتي أَن أَعود إِلى بيت السيّدة «ميليه».

– وهل أَعطتك هذه السيّدة مالاً وفيرًا؟

– لم تعطِني أَيّ مالٍ.

– هل أَنت واثقةٌ من ذلك؟

– أَجل بالتأكيد.

– وماذا عن الراهبات؟ هل حدّثتهنّ بالأَمر؟

– أَجل، حدّثتُ الأُمّ الرئيسة، والأُخت المسؤولة عن المشغل.

– وماذا قلنَ لكِ؟

– نصحنَني ألاّ أَهتمّ بهذا الأَمر، فما هو، في نظرهنّ إلاّ خيالٌ ووهمٌ!

وربّما توسّم المفوّض، في موقف الراهبات، ذريعةً لتحطيم ثقة برناديتّ، فأَضاف:

– أَجل، يا ابنتي، أَنتِ حالمةٌ!

– لا بل كنتُ يقظةً.

– لقد خُيّل إليك أَنّك رأيت.

– لا، بل عركت عينيّ جيّدًا، وحدّقت.

– لقد خدعك انعكاسٌ ما!

– ولكنّني شاهدت «ذاك»، عدّة مرّاتٍ، في العتمة، ولا يمكن أَن أَكون خُدعتُ، في كلّ مرّةٍ.

– والأُخريات؟ أَليس لهنّ عيونٌ؟ فلمَ لم يرينَ؟

– لست أدري. ولكنّني أعلم أنّني رأيت!

فشلت أساليب الإقناع، فلجأ المفوّض إلى وسائل الردع، وقال:

– اسمعي، يا برناديتّ. لقد أصبحتِ موضع هزء الجميع، وهم يصفونك بالجنون. فمن مصلحتك ألاّ تعودي إلى المغارة.

– لقد وعدت بالشخوص إليها، خمسة عشر يومًا متواصلةً.

– لم تعِدي أحدًا، بما أنّكِ كنتِ ضحيّة الوهم. كوني، إذن، عاقلةً، وعديني، أنا، ألاّ تعودي إلى هناك.

صمتت برناديتّ. غير أنّ عينيها السوداوين كانتا تقولان بوضوحٍ: «بما أنّني وعدتُ، فليس بوسعي أن أعِد خلاف ذلك!»

تبدّلت لهجة المفوّض، وتلا على مسامع الفتاة ما كان قد

دوّنه، بلهجةٍ تنمّ عن الشجب والامتعاض، مغيّرًا، عن قصدٍ، عباراتٍ عديدةً. فعلى سبيل المثال، جاء في مسوّدته: «ابتسمت لي العذراء»، ولكنّ برناديتّ اعترضت: «أنا لم أقل العذراء».

وارتبك المفوّض. فبما أنّ برناديتّ ترفض تحديد شخص الرؤيا، وتعترض حتّى عندما يقول «الفتاة» أو الآنسة، اضطرّ إلى استخدام لفظتها ذاتها، أي «كويرو» التي تعني «ذاك» أو «تلك»، (وهي تستخدم للمذكّر والمؤنّث على السواء). ومع ذلك، كانت برناديتّ تشير، بوضوحٍ، إلى أنّ شخصًا كان يظهر لها.

وأعاد المفوّض، مرّاتٍ عديدةً، مقاطع ممّا كان قد دوّنه، مغيّرًا، في كلّ مرّةٍ، ترتيبها ومحتواها، كي يمتحن برناديتّ. وهي، بعد أن كانت قد اعترضت، بحزمٍ وحدّةٍ، على محاولاته الأولى، أقلعت عن المساهمة في تلك الخدعة، قائلةً: يا سيّدي، لقد غيّرتَ كلّ شيءٍ!

على غير موعدٍ، دخل مكتبَ المفوّض، جابي الضرائب السيّد «إيستراد» وقد دفعه الفضول كي يستمع إلى

الاستجواب. وخلافًا لعادته، تصنّع المفوّض جاكوميه الكياسة واللطف، وأَظهر مودّةً كاذبةً، بغية الإيقاع بالفتاة، التي كانت تجيب على أَسئلته ببساطةٍ وصدقٍ، وكأَنّها تصف مشهدًا يعبر تحت أَبصارها، بنبرة صراحةٍ صادقةٍ أَوقعت المحقّق في حيرةٍ. واستمرّ المفوّض في تصنّع التعاطف، وأَخذ يطرح أَسئلةً لا رابط بينها، ولا تساوق، السؤال تلو السؤال، لكيلا يدع للفتاة فسحة إِعمال الفكر، وأَملاً في إِيقاعها في تناقضٍ يدينها. وكان يدوّن، بسرعةٍ، كلّ أَقوالها. ولكنّه سرعان ما تبيّن عجزه عن تشويش فكرها، وإِخفاق جميع أَساليبه. فخداعه فشل أَمام صدق بناديتّ، ومحاولاته إِثارة زهوها سقطت أَمام تواضعها الراسخ، واتّهامها بالابتزاز انهار أَمام انتفاء تلقّيها أَيّ مالٍ من أَيّة جهةٍ، وادّعاء مرضها النفسيّ وهلوستها هوى أَمام سلامة عقلها وعفويّتها. كان قد تمكّن من قذف الخوف في قلوب جميع أَهالي لورد، ولكنّ هذه الفتاة الأُمّيّة البسيطة صمدت في وجه كلّ محاولاته، وفشّلت كلّ حبائله، فلم يعثر على ذريعةٍ للإِيقاع بها. ولكنّه، مع فشله، لم يستسلم. فعمد إِلى الوعيد والتهويل، وتبدّلت، بغتةً،

لهجته، فاتّهم الفتاة بالكذب والخداع، وهدّد بحبسها.

ذهلت الفتاة من هذا الانقلاب المفاجئ، ولكنّها، خلافًا لتوقّعات المفوّض جاكوميه، لم تضطرب، ولم تفقد شيئًا من هدوئها، ورباطة جأشها. ولكأنّ قوّةً خفيّةً كانت تساعدها على تحمّل الصدمة.

وفي محاولةٍ أَخيرةٍ، أَنذرها:

– اسمعي برناديتّ، لقد وضعتِ ذاتك في مأزقٍ، وبوسعي إِنقاذكِ منه، بشرط اعترافكِ أَنّكِ لم تري شيئًا!

– ولكنّني رأيت، يا سيّدي، ولا يمكنني الاعتراف بخلاف ذلك!

– عِديني، على الأَقلّ، أَلاّ تعودي إِلى المغارة، فهذه فرصتك الأَخيرة.

– ولكنّني، يا سيّدي، سبق لي أَن وعدت بالعودة إِليها.

– إِذن، أَنتِ أَردتِ كلّ ما سيحدث لك. سأَستدعي عناصر الشرطة كي يقتادوك إِلى السجن.

– بوسعك، يا سيّدي، أن تسجنني. ولكن ليس بوسعي أن أقول غير ما قلت، أي الحقيقة.

هذا الجواب الصادر عن فتاةٍ بسيطةٍ، ارتدى عظمةً حقّةً!

واتّضح للمفوّض «جاكوميه» أنّ تهديداته لا تجدي نفعًا. فقد كان الصراع ناشبًا بين قوّةٍ مدعومةٍ بالمكر، وضعفٍ لا سلاح له سوى بساطته وصدقه. فأعاد طرح أسئلته، بترتيبٍ مختلفٍ، طالبًا منها أن تجيبه في الحال، على كلٍّ منها، إجابةً مقتضبةً، علّه يوقعها في تناقض. وفشلت، أيضًا، محاولته هذه. حينئذٍ قال إنّه سيدوّن محضرًا بالاستجواب، يوجز أسئلته وأجوبتها، كي توقّع عليه، وأقحم فيه تفاصيل اختلقها، تناقض أقوالها السابقة. ولكنّ فخّه هذا، أخفق، أيضًا، في اصطياد فريسته. إذ ما انفكّت برناديتّ تعترض على كلّ اختلاقاته، قائلةً، بحزمٍ، وثقةٍ، وبساطةٍ:

– كلاّ لم أقل هذا، بل قلت كذا...

هذه الثقة الصامدة، لدى تلك الفتاة الوضيعة، الجاهلة، كانت مبعث إعجاب جابي الضرائب، السيّد «إيستراد»،

الشاهد على الاستجواب. فتلك الفتاة التي كانت خجولاً، ولا سيّما أمام الشخصيّات التي تجهلها، برهنت عن شدّة مراسٍ مدهشةٍ، في كلّ ما يتعلّق بالظهورات. وكلّما تعيّن عليها الشهادة عمّا رأت، كانت تجيب برباطة جأشٍ، وبثقةٍ لا تُقهَر. غير أنّها، حتّى في تلك المناسبات، كانت تظهر خَفَرًا رائعًا، ورغبةً في التواري عن الأنظار. وإنّما كانت تتغلّب على خجلها احترامًا للحقيقة العلويّة التي كانت لها رسولاً بين البشر، وحبًّا للسيّدة التي ظهرت لها في مغارة مسّابييل.

ولم يبقَ للمفوَّض جاكوميه من حيلةٍ سوى التهديد، فقال لبرناديتّ:

– إن استمررتِ في الشخوص إلى المغارة، فسأودعك في سجنٍ لن تغادريه حتّى تتعهّدي بألاّ تعودي إلى هناك.

– لقد وعدت سيّدة الظهور بالمثول إلى هناك، وكلّما حان أوان شخوصي إلى المغارة، تدفعني إليها قوّةٌ داخليّةٌ لا أجد سبيلاً إلى مقاومتها!

وفي تلك الأثناء، كان الجمع المحتشد حوالي مركز الشرطة، والذي كان كثيرون من أفراده قد شاهدوا، في الصباح، انخطاف برناديتّ في المغارة، قد ضاق ذرعًا بانتظار خروجها. وكان المفوَّض يسمع صياحهم، وتهديداتهم، وحرصهم على سلامة الفتاة وحرّيّتها. وبغتةً قُرِع باب مكتبه قرعًا عنيفًا. وبما أنّ المفوّض لم يهتمّ، بادئ الأمر، ازداد القرع عنفًا، وجرت محاولةٌ لخلع الباب، ففتحه المفوَّض غاضبًا، منذرًا، قائلاً:

– ليس مسموحًا الدخول إلى هنا. ماذا تريد؟

وأجاب فرنسوا سوبيروس، وهو يندفع إلى حيث كانت ابنته محتجزةً:

– «أريد ابنتي!»

ولكنّه حيال هدوء ابنته، سكن روعه، وانتابه الحرج في حضرة الرجل الذي كان يُدخل الخوف إلى قلوب أهالي المنطقة. وكانت تجاربه السابقة قد علّمته أنّ البراءة وحدها لا تكفي لحماية الفقراء من السجن. وتبيّن المفوّض «جاكوميه»

ارتباك والد برناديتّ، من خلال رعدته، وعبثه بقبّعته، فاستخدم سلاح الكذب، وأوهمه أنّ برناديتّ نفسها اشتكت من إكراه والديها لها على الشخوص إلى المغارة، واستجرار الجموع في إثرها، وأنّها تعبت من هذه المهزلة. ثمّ دنا منه، وربّت على كتفه، متصنّعًا الأُلفة، وقال له:

– حذارِ يا سوبيروس، حذارِ. إنّ ابنتك تنزلق إلى ورطةٍ خطيرةٍ، وتنتهج درب السجن. ولكنّي لن أودعها فيه الآن، شرط أن تمنعها من العودة إلى المغارة. ولدى أوّل مخالفةٍ، سأتّخذ تدابير لا رحمة فيها. وأنت تعرف أنّني لا أمزح!

وأجاب فرنسوا سوبيروس، وقد استحوذ عليه الخوف:

– بما أنّ تلك هي رغبتك، وبما أنّنا، نحن، قد ضقنا ذرعًا بتوافد الناس إلى بيتنا ليلَ نهار، فسنمنعها، والدتها وأنا، من الاختلاف إلى المغارة. وقد عهدناها لا تعصى لنا أمرًا.

ولاحظ مفوّض الشرطة مهدّدًا:

– على أيّة حالٍ، إن هي عادت إلى المغارة، وإن استمرّت المهزلة، فلن أُعاقبها وحدها، بل سأُعاقبكما معها.

ثمّ أَشار إليه بالانصراف.

تعالت صيحات البهجة، عندما شاهد الجمع برناديتّ ووالدها يخرجان من مركز الشرطة، طليقين. وتبدّد الحشد.

وعادت برناديتّ إلى بيتها، منتصرةً على من أَفلح في إخافة المدينة كلّها، ولم يجد إلى إخافتها سبيلاً. وكانت تلهو بتقليد حركات المفوّض، وتهزأ من حِيَله ومساخره وتمثيليّاته.

ولبث المفوّض وجابي الضرائب يتبادلان الانطباعات. فعبّر «إيستراد» عن دهشةٍ بالغةٍ:

– يا لثبات برناديتّ الذي لا يتزعزع!

وردّ «جاكوميه»، الذي شقّت عليه هزيمته أَمام فتاةٍ بسيطةٍ أُمّيّةٍ:

– بل يا لعنادها في الكذب الذي لا يُقهر!

– يا لنبرة صدقها! فما من تناقضٍ في أَقوالها، أَو في موقفها، ولو مرَّةً واحدة. من الجليّ أَنّها مؤمنةٌ بما رأت.

– بل، يا لليونة ذكائها! كلّ جهودي للإيقاع بها، باءت بالفشل. لقد حفظت تمثيليّتها عن ظهر قلبٍ!

كان الرجلان غير مؤمنين بالظهورات. ولكنّ عدم الإيمان اتّخذ لدى كلٍّ منهما منحًى مختلفًا. وما عتّم أن انقلب هذا الاختلاف هوّةً. فأحدهما كان يرى برناديتّ حاذقةً في كذبها، والآخر كان يراها صادقةً في وهمها.

غير أنّ «جاكوميه»، رغم إخفاقه في إيقاع الفتاة في تناقضٍ، أحرز انتصارًا بقذفه الرعب في صدر والدها، الذي كان رجلاً مستقيمًا طيّبًا، ولكنّه لم يكن بطلاً. فقد كان من سواد الشعب الفقراء، عديمي الحيلة، الذين يخشون أصحاب السلطة. وقد لقّنته الرزايا التي انهالت عليه تترى، رغم استقامته وطيبته، تجربةً قاسيةً.

ومع ذلك كان فرنسوا سوبيروس مؤمنًا بصدق ظهورات العذراء لابنته، ويخشى إغضاب «السيّدة» غير المرئيّة. ولكنّ خوفه من موظّفٍ من لحمٍ ودمٍ، ماثلٍ، قديرٍ، كان هو الغالب. فحاول إقناع ابنته بالإقلاع عن العودة إلى المغارة. ولكنّها كرَّرت له ما قالته لمفوّض الشرطة:

– عندما أَشخص إِلى المغارة، لستُ أَفعل ذلك من تلقاء نفسي، بل هناك، في داخلي، ما يدعوني ويشدّني.

– أَيًّا كان الأَمر، فإِنّي أَمنعك من العودة إِلى المغارة، ولست أَظنّ أَنّك ستعصين أَمري، للمرَّة الأولى في حياتك!

واكتفت الفتاة الممزّقة بين وعدها للزائرة السماويّة، وحظر والدها الصريح، بالقول:

– سأَفعل كلّ ما يسعني فعله.

وهكذا انتهى، ملوّنًا بالحزن، يوم الأَحد ذاك، الذي كان قد استُهلّ بالمجد والسنى.

* * * * *

٢٢شباط ١٨٥٨

لم تحضر برناديتّ، في الموعد المعتاد، فقد منعها والداها من ذلك، وأَرغماها على الذهاب إِلى المدرسة، حيث الراهبات، أَيضًا، لم يكنّ مؤمناتٍ بالظهور، وكنّ يتّهمنَ برناديتّ بالكذب والخداع، وتضليل القوم، ويعددنَ عملها تدنيسًا لزمن الصوم المقدّس. وقد تأثّر الطلاّب بحكم الراهبات، فأَنحوا على برناديتّ بالثلب والسخريّة. ولكأنّ الربّ الذي أَغدق على الفتاة، في الأَيّام السابقة، مواهبه وتعزياته، عرَّضها لامتحانٍ عسيرٍ قاسٍ. ولكم تألّمت نفسيًّا! وكان أَعتى ما يؤلمها ويؤرّقها عجزها عن الوفاء بالوعد الذي قطعته للعذراء. نفسها التي كانت، حتّئذٍ، ساجيةً، أَصبحت ساحة صراعٍ مضنٍ. فهل تعصى أَوامر والديها، أَم تُخلف وعدها للسيّدة السماويّة؟ وما أَعسر الخيار!

عند الظهيرة، كانت في طريقها إلى البيت، لتناول الغداء، عندما قرع جرس الكنيسة، مذكّرًا بتبشير الملاك للعذراء، وإذ بقوّةٍ، لا قِبَل لها على مقاومتها، تدفعها نحو المغارة.

لمّا دنت من المغارة، كانت الجموع التي تقاطرت إلى المكان، منذ الصباح الباكر، قد تبدّدت جزئيًّا. ومع ذلك ما برح جمهورٌ غفيرٌ محتشدًا، وقد وافى بعضهم، بُغية الصلاة، والبعض الآخر، بدافع فضولٍ صرفٍ.

جريًا على عادتها، ركعت برناديتّ، وشرعت تتلو المسبحة، وعيناها شاخصتان إلى حيث سبق للطيف السماويّ أن ظهر لها، ستّ مرّاتٍ. وكانت الجموع يقظةً لكلّ حركةٍ، ونأمةٍ، خاشعةً، لاهثةً، تترقّب رؤية وجه الفتاة يشرق إيذانًا بظهور الزائر السماويّ. وانصرم وقتٌ طويلٌ على هذه الحال، ومع أنّ برناديتّ كانت تصلّي بحرارةٍ، لم يظهر أيّ تبدّلٍ في ملامحها، ولم يقدم من السماء، أيّ زائرٍ. وكانت لها تلك الخيبة أقسى إيلامًا ممّا تعرّضت له، بالأمس، في مركز

الشرطة، وأقسى من حظر والديها عليها الشخوص إلى المغارة. لقد غشى نفسها شعورٌ مرٌّ بتخلّي السماء عنها، بعد تخلّي الأرض.

وقد ضاعفت مرارةَ نفسها تعليقاتُ الجموع التي استنتج بعض أفرادها أنّ كلّ ما كانت قد روته عن ظهوراتٍ سابقةٍ كان محض وهمٍ واختلاقٍ. ومع ذلك ما انفكّت برناديتّ تؤكّد أنّها رأت السيّدة بعينيها، وكلّمتها، وأنّ لا مجال للتشكيك بالأمر.

وفي حين شقّت الخيبة على المؤمنين الموجودين، حينذاك، في المكان، وحارت عقولهم، لم يُساور برناديتّ أيّ شكٍّ. بيد أنّ حزنًا عميقًا غشى نفسها. وفي طريق إيابها إلى المنزل الوالديّ، كانت تذرف الدموع، وتصلّي، متسائلةً، بتوجّعٍ، هل هي ارتكبت خطأً أغضب العذراء. كانت تبكي، وفي قرارة نفسها ما انفكّ الرجاء متّقدًا، وتوقها إلى رؤية العذراء ثانيةً، يزداد استعارًا.

استوضحها والدها من أين كانت آتيةً، فأجابت أنّ قوّةً

داخليّةً خفيّةً، لا قِبَل لها على مقاومتها، دفعتها إلى المغارة. وبما أنّه كان موقنًا بصدقها، أطرق برهةً، وكأنّ صراعًا محتدمًا كان يمزّق نفسه، وكأنّه ندم على معارضته إرادة السماء، ثمّ قال:

– «بما أنّ الأمر كذلك، فإنّي أترك لك حرّيّة الشخوص إلى المغارة، متى شئتِ».

وأشرق محيّا الفتاة بفرحٍ عميقٍ وطاهرٍ.

ما حدث ذلك اليوم شطر أهالي لورد إلى فئتين: إحداهما تذرّعت بعدم حضور العذراء، حجّةً لتأكيد أنّ كلّ ما رُوي سابقًا عن الظهورات كان محض اختلاقٍ، وأضغاث أحلامٍ. في حين ارتأى آخرون أنّ ذلك دليلٌ دامغٌ على صدق برناديتّ. فلو هي كذبت، سابقًا، لاستمرّت في كذبها.

واستشارت برناديتّ، في ذلك المساء معرّفها، معبّرةً عن تمزّقها بين وعدها للعذراء، وأوامر البشر التي تمنعها من الوفاء لذلك الوعد. فأكّد لها معرّفها: «لا أحد يملك حقّ منعك من الشخوص إلى المغارة».

وأُحيط المفوّض «جاكوميه» علمًا بما جرى، وبخرق أَوامره، فاستدعى برناديتّ ووالديها وحاول، مجدّدًا، إلقاء الرعب في قلوبهم، ولكنّه فوجئ بتبيّن أَنّ فرنسوا سوبيروس، قد تخلّى عن خوفه وخنوعه. فقد أَجابه:

– لم تكذب برناديتّ، قطّ. وإِن كان اللّه، أَو العذراء، أَو أَيّ قدّيسٍ، يدعوها ويأمرها، فلا قِبَل لنا على مقاومته، لكيلا نتعرَّض لعقاب السماء.

ثمّ التفت «جاكوميه» إِلى برناديتّ، قائلاً:

– بما أَنّ الظهورات توقّفت، فلا مبرّر، بعدُ، لشخوصك إِلى المغارة.

– ولكنّني وعدت بالمثول على مدى خمسة عشر يومًا.

حينئذٍ، هدّد المفوّض بسجن الفتاة، وبسجن والديها، إِن هي استمرَّت في خداع الجموع بتمثيليّاتها. واعترضت برناديتّ:

– إِنّي أَقصد المغارة كي أُصلّي بمفردي. وإِن كانت الجموع

تواكبني، أَو تسبقني إِلى هناك، فليس ذلك ذنبي. القوم يقولون إِنّ العذراء هي التي تظهر لي. ولكنّني أَنا، لستُ أَعلم، بعدُ، مَن هي.

وأُسقط في يد المفوّض الذي برع في اكتشاف كذب المحتالين، ولكن أَعيته الحيلة أَمام تلك البساطة الشفّافة، فاستعان بالمدّعي العامّ الإِمبراطوريّ، الذي لم يجد، في القانون، ما يجرّم تلك الفتاة: فهي لا تدعو ولا تحرّض أَحدًا، ولا تستمدّ أَيّ مغنمٍ مادّيٍّ، وتصلّي في مكانٍ مباحٍ للجميع، حيث ما من قانونٍ يمنعها من الركوع. وهي لا تعير للظهور أَيّ قولٍ معادٍ للسلطات الحكوميّة. وجميع إِفاداتها واعترافاتها لم تتضمّن أَيّ تناقضٍ أَو كذبٍ. والحشود الجماهيريّة لا تسبّب أَيّ اضطرابٍ أَمنيٍّ، فلا مبرّر لاستخدام العنف.

وتدارس الأَمر كلٌّ من مفوّض الشرطة، وعمدة لورد، والمدّعي العامّ، فاتّضح أَنّ ما من بندٍ قانونيٍّ يعتبر زيارة المغارة جرمًا. وبيّن العمدة أَنّ الشعور الشعبيّ مؤيّدٌ لبرناديتّ، وأَنّ

من الخطأ اللجوء إلى العنف لمقاومة الظاهرة، إذ إنّ من شأن العنف إثارة الشغب الشعبيّ. ورجحّ المؤتمرون وجوب التريّث، وإفساح حرّيّة المثول إلى المغارة لبرناديت ولمن يشاء.

ومن المحقّق أنّ المفوّض «جاكوميه» لم يكن راضيًا بتبنّي هذا الرأي.

ظهور ٢٣ شباط ١٨٥٨

قبل إشراقة الشمس، احتشدت الجماهير أَمام المغارة. ووافت برناديتّ محتفظةً ببساطتها الهادئة، التي لم تفلح في تعكيرها لا تهديدات المناوئين، ولا غلوّ الآخرين في تقديرها وتكريمها. غير أَنّ أَحزان الأَمس وهواجسه كانت قد تركت على قسمات وجهها آثارًا بيّنةً. وكانت ما زالت تخشى أَلاّ تظهر لها السيّدة، في ذلك اليوم، أَيضًا.

ركعت بتواضعٍ، مسندةً إِحدى يديها على شمعةٍ كانت قد جاءت بها. وحاملةً مسبحتها، باليد الأُخرى. وما إِن شرعت تصلّي، مستدعيةً الزائرة السماويّة بلهفةٍ، حتّى وافت، وأَلقت عليها نظرةً زاخرةً بحنانٍ فائقٍ. ولكأنّ حبّها لها قد تضاعف مذ بدأت الفتاة تتألّم بسببها، ولكأنّ أُمّ الله، سلطانة السماء، أَسمى وأَعظم مخلوقٍ وُجد، قطّ، تلك التي

يعمّ مجدها الأَجيال كلّها، ويملأ الأَبديّة، ويشحب، حياله، كلّ مجدٍ، كانت راغبةً في عقد علاقاتٍ حميمةٍ ودّيّةً مع تلك الفتاة المغمورة، راعية الأَغنام الفقيرة، الزريّة. ودعتها «السيّدة» باسمها، دعتها بصوتها العذب الذي يفتن الملائكة، وأَفضت لها بسرٍّ طلبت منها الاحتفاظ به لنفسها، على ألاّ تبوح به لأَحدٍ، ثمّ قالت لها:

– «**والآن، امضي فبلّغي الكهنة أَنّني راغبةٌ في أَن يُشاد لي، هنا، مزارٌ**». وبدا كأَنّها تعد بإِغداق نِعَمٍ لا تُحصى، في ذلك المكان الذي باركته بحضورها. وتوارت.

أَدرك جميع الحاضرين أَنّ الظهور قد تمّ، من مراقبتهم لملامح الفتاة. كلٌّ منهم كان راغبًا في الإِحاطة بتفاصيل حوارها مع الرؤيا، غير أَنّ الفتاة كانت تستعجل العودة إِلى لورد، كي تبلّغ رسالة السماء إِلى الكهنة.

لم يكن الأَب «پيرامال»، كاهن الرعيّة، ينكر، مبدئيًّا، إِمكانيّة الظهورات، ولكنّ مسؤوليّته كانت تفرض عليه، في هذا المضمار، الحيطة، والتحرّز، والتأنّي في الحكم. وهو لم

يكن قد شاهد، ولو مرَّةً واحدةً، برناديتّ في حالة انخطافٍ، متأمّلةً ومحاورةً زائرتها السماويّة. ولو شاهدها، لربّما كان أكثر استعدادًا لتصديقها. ولذلك، استقبلها، في زيارتها الأولى له، بشيءٍ من التحفّظ، وخاطبها بجفوةٍ، بل بقسوةٍ.

سألها عمَّ جاء بها، وعمَّ جاءت به، فأجابت:

– إنّي آتيةٌ من قِبَل «السيّدة» التي تظهر لي في مغارة مسّابييل...

وقاطعها الكاهن، قائلاً:

– «أنت، إذن، من تدّعي الرؤى، وتشغل الناس بحكاياتها! ما الذي جرى لك، منذ أيّامٍ، وما هي الأُمور الخارقة التي تدّعينها، وليس ما يثبتها ويؤكّدها؟»

هذا الموقف الصارم، الصادر عن كاهنٍ عُهدت فيه الطيبة، والرقّة الأبويّة، حيال أبناء رعيّته، وبخاصّةٍ أطفالها، وهذا التشكيك بصدق الفتاة الرائية، أحزنا قلبها، وأحرجاها. غير أنّها روت له، بثقةٍ هادئةٍ، وبصدقٍ، كلّ ما جرى لها. وهو،

الذي طالما أَلِف القراءة في أَغوار القلوب، لم تخفَ عليه نبرة صدقها. ومن خلال عينيها الصافيتيْن، وملامح براءتها السافرة، استشفّ صفاء نفسها. هالة نقائها كانت تتجلّى للنفوس الطاهرة، ونبرة صدقها كانت كفيلةً بطرد كلّ ريبةٍ. وقد تأثّر بها الكاهن، حتّى أَعماقه. غير أَنّ شعوره الراسخ بمسؤوليّاته فرض عليه السيطرة على عواطفه، والمضيّ قُدُمًا في التحفّظ، وإظهار الصرامة. فسأل الفتاة:

– وهل تعرفين اسم «السيّدة»؟

– كلاّ. لم تُفصح لي، بعدُ، عن هويّتها.

– إنّ الذين صدّقوك، يؤمنون أَنّها العذراء مريم.

ثمّ أَردف، بنبرةٍ جادّةٍ، تنطوي على إنذارٍ:

– «ولكن، هل تعلمين أَنّك، إن كنت كاذبةً في ادّعائك رؤيتها في المغارة، فإنّما أَنت تخاطرين بألاّ تريها أَبدًا، في السماء!...».

فأجابت الفتاة:

– لست أَعرف هل هي السيّدة العذراء. ولكنّني أَرى

طيفها، مثلما أَراك الآن، وهي تحدّثني، كما أَنت تحدّثني. وإِنّي آتيةٌ من قِبَلها، كي أُبلّغك رغبتها في أَن تشيدوا لها مقام تكريمٍ وصلاةٍ، فوق صخور مسّابييل، حيث هي تظهر لي.

وضاعةُ مظهر سفيرة العذراء، سرّبت إِلى نفس الكاهن الشكّ في صدق الرسالة. وتغلّب خوفه من أَن تكون الفتاة فريسة وهمٍ، على التأثّر الذي كان قد أَخذ بقلبه، قبل لحظات. وأَمرها بأَن تكرّر، حرفيًّا، أَقوال سيّدة المغارة.

أَطرق الكاهن، برهةً، وقد تملّكته الحيرة والخشية من تجاهل رسالةٍ مباشرةٍ وجّهتها إِليه أُمّ اللّه، هو الكاهن المغمور. غير أَنّ خشيته من الوقوع ضحيّة خدعةٍ، ظلّت تقيّده. وبعد إِعمال فكره، قال للفتاة:

– «إِن كانت السيّدة التي تتحدّثين عنها هي، حقًّا، ملكة السماء، فسأكون سعيدًا بالمساهمة، بقدر طاقتي، في إِشادة كنيسةٍ صغيرةٍ تكريمًا لها. ولكنّ أَقوالك ليست موضع يقينٍ، ولا شيء يجبرني على تصديقها. أَنا لا أَعرف من هي هذه

«السيّدة». وقبل أَن أُحقّق رغبتها، لا بدّ لي من التأكّد من أَنّ لها الحقّ في ما تطلب. فاسأليها أَن تقدّم لنا برهانًا، مثل جعل شجرة النسرين، أَو شجرة الورد، تزهر في عزّ الشتاء.

سرعان ما ذاعت تفاصيل الحوار الذي دار بين برناديتّ وكاهن الرعيّة. وقد أَيّد أَدعياء العلم والفلسفة، وجهابذة السياسة، موقفه الحازم ممّا كانوا يصفونه بالخزعبلات، رغم الموقف الشعبيّ المؤيّد لبرناديتّ بحماسٍ عارمٍ. لقد رأى اللامؤمنون في اقتضاء الكاهن معجزةً تثبت صحّة الظاهرة، حكمةً راسخةً، أَثلجت قلوب مفوّض الشرطة، والمثقّفين، وأَضرابهم. وشاع بينهم القول إِنّ الكاهن طلب من سيّدة الرؤيا إِبراز جواز سفرها.

ظهور يوم الأَربعاء ٢٤ شباط ١٨٥٨

في ذلك اليوم اختلط بالجمهور عددٌ من الرسميّين والمثقّفين، آملين التمتّع بمشاهدة خيبة رجاء المؤمنين. ومن هؤلاء كان جابي الضرائب، السيّد «إِيستراد»، الذي كان شاهدًا على استجواب المفوّض «جاكوميه» الأَوّل، لبرناديتّ. وسبق لنا أَن سجّلنا انطباعاته حينذاك. وهو نفسه كتب عن مشاهداته، في ذلك اليوم:

«وصلتُ، وكلّي تأهّبٌ للمراقبة والتمحيص. وأَعترف أَنّ رغبةً في التمتّع والضحك هي التي كانت تحدوني. إِذ توقّعتُ مشاهدة مهزلةٍ، ومواقف غريبةٍ تدعو للسخريّة. كان جمعٌ كثيفٌ لا ينى يتألّب حول تلك الصخور الموحشة، وأَنا أَتأمّل أولئك الحمقى الكُثُر، وأَسخر، في سرّي، من سذاجة

كلّ النسوة الجاهلات، ونزعتهنّ إلى تصديق كلّ ما يُقال لهنّ، واللواتي ركعنَ، ببلاهةٍ، أمام الصخور الجرداء.

«كنّا قد وافينا باكرًا جدًّا، وظللتُ أدفع بمرفقيّ ومنكبيّ حتّى احتللت الصفّ الأوّل. وفي الموعد المعتاد، أي مع بزوغ الشمس، وافت برناديتّ، وكنت على مقربةٍ منها. ولمحت، من خلال ملامحها الطفوليّة، تلك الرقّة، والبراءة، والهدوء العميق، التي كانت قد استلفتت انتباهي، لأيّامٍ خلت، في مكتب مفوّض الشرطة. ورأيتها تركع، ببساطةٍ مطلقةٍ، بعيدًا عن كلّ تظاهرٍ، وكلّ ارتباكٍ أو اضطرابٍ، وعلى غير اهتمامٍ بالجموع المحيقة بها، ولكأنّها وحيدةٌ في كنيسةٍ، أو في غابةٍ مهجورةٍ، بمنأًى عن كلّ نظرةٍ بشريّةٍ. استلّت مسبحتها، وشرعت تصلّي. وما لبث أن بدا نظرها، وكأنّه تلقّى انعكاس نورٍ مجهولٍ، فغدا ثابتًا، مأخوذًا، مذهولاً، يتألّق سعادةً، محدّقًا إلى ثغرة الصخرة المنيفة على المغارة. وحوّلت نظري إلى ذلك المكان، ولكنّني لم أَرَ شيئًا، سوى أغصان شجرة النسرين العارية، ومع ذلك، حيال تجلّي وجه الفتاة، هوت، في الحال، كلّ أحكامي السابقة، وكلّ ادّعاآتي،

واعتراضاتي الفلسفيّة، وكلّ ما كنت أُنكره، مسبَّقًا، بلا تمحيص. وحلّ محلّها شعورٌ غريبٌ استحوذ عليّ عنوةً. ونشأ لديّ اليقين، وحدْسٌ لا سبيل إلى مقاومته، بوجود كائنٍ سرّيٍّ في ذلك المكان. لم تكن عيناي تريان شيئًا، ولكنّ نفسي، ونفوس شهودٍ كُثُرٍ، على ما كان يحدث في تلك الساعة الجليلة، كانت تستشفّ ذلك الكائن، مثلي، بنور اليقين الداخليّ. أجل، أعترف أنّ كائنًا إلهيًّا كان حاضرًا هناك.

«أمّا برناديتّ، التي تجلّت، بغتةً، تجلّيًا كلّيًّا، فلم تعُدْ هي برناديتّ المعهودة، بل غدت ملاكًا سماويًّا غارقًا في انخطافٍ يستعصي على الوصف. قسمات وجهها تبدّلت، وارتسم عليها فهمٌ آخر، وحياةٌ أُخرى، وأكاد أقول نفسٌ أُخرى. لم تعُدْ تشبه ذاتها، ولكأنّها أمست شخصًا آخر. ملامحها، وأدنى حركاتها، مثل رسمها إشارة الصليب، باتت ترتدي نبلاً، وجلالاً، وعظمةً أسمى من كلّ ما لدى البشر من نبلٍ، وجلالٍ، وعظمةٍ.

«عيناها المحدّقتان، كانتا مستغرقتيْن في تأمّلٍ لا ينتهي، كانتا واسعتين، ثابتتيْن، ولكأنّها تخشى أن تغمض جفنيها، فتفقد، ولو للحظةٍ، رؤية البهاء الفاتن الذي كانت تتأمّله. كانت تبتسم للكائن غير المرئيّ. وكان منظرها يوحي بالانخطاف والغبطة. لم أكن أقلّ تأثّرًا من سائر الشهود، وعلى غرارهم، كنت أُمسك أنفاسي، محاولاً استقراء الحوار الدائر بين الرؤيا والفتاة، التي كانت تصلّي، وقد ارتسمت عليها أعمق أمارات التجلّة والاحترام، أو بالحريّ، أمارات العبادة المطلقة الممزوجة بحبٍّ لامحدودٍ، وبأعذب افتتانٍ. وبين لحظةٍ وأُخرى، كانت تسري على محيّاها مسحة حزنٍ. غير أنّ الطابع السائد، كان طابع فرحٍ غامرٍ.

«وقد لاحظتُ أنّها، في بعض اللحظات، كانت تتوقّف عن التنفّس. وطوال الفترة التي كانت مسبحتها في يدها، كان يتّفق لها أن تنسى مسبحتها، من جرّاء ذوبانها في تأمّل الكائن السماويّ، فتتجمّد يدها في مكانها، ثمّ تعود فتنزلق أناملها، بحركةٍ غير منتظمةٍ، فوق الحبّات الصغيرة. وكانت كلّ حركاتها على تناغمٍ وتساوقٍ تامّين مع ملامح محيّاها،

التي كانت تعبّر، على التوالي، عن الافتتان، أَو الصلاة، أَو الفرح.

«بين فينةٍ وأُخرى، كانت ترسم إِشارات صليبٍ، في جمٍّ من الخشوع، والنبل، والتعبير عن القوّة. وإِن كانوا، في السماء، يرسمون إِشارات الصليب، فهي بالتأكيد تحاكي تلك التي كانت ترسمها برناديتّ، وهي في حالة انخطاف. فحركتها، حينذاك، بكلّ محدوديّتها، كانت تبدو وكأَنّها تعانق اللامحدود.

«وفي وقتٍ ما، تقدّمت برناديتّ، على ركبتيها، من حيث كانت تصلّي، أَي من ضفّة نهر «الغاف»، حتّى صدر المغارة، مجتازةً مسافة خمسة عشر مترًا تقريبًا. وفيما كانت تصعّد فوق ذلك المنحدر الوعر، سمعها أولئك الذين مرَّت قريبًا منهم، تقول، بكلّ وضوحٍ: «التوبة! التوبة!». إِذ كانت العذراء قد قالت لها:

– «**صلّوا من أَجل ارتداد الخطأة!**».

ثمّ طلبت السيّدة من برناديتّ أَن تقبّل الأَرض تعبيرًا عن

التوبة، وتكفيرًا عن الخطأة، فامتثلت. وحين شاهدتها خالتها تقبّل الأرض صاحت، وأُغمي عليها. فأفاقت برناديتّ من انخطافها، وهدّأت روع خالتها.

«ثمّ توارت السيّدة... ونهضت الفتاة، بعد لحظاتٍ، وسلكت درب العودة إلى المدينة وسط الجمع. وحينئذٍ، لم تعُدْ سوى فتاةٍ فقيرةٍ، ترتدي أسمالاً زريّةً باليةً...».

طوال هذه الفترة لم تزهر الوردة البرّيّة، مع أنّ كثيرين توقّعوا تحقيق تلك المعجزة المعطّرة التي اقترحها كاهن الرعيّة. ومع ذلك لم يهتزّ إيمان المصلّين، الذين كان لمنظر برناديتّ، وهي في حالة الانخطاف، أنفذ الأثر على نفوسهم وعقولهم.

وإثر مغادرة برناديتّ، جاس بعض الرسميّين، وكثيرون من أفراد الشعب خلال المكان، فلم يعثروا فيه سوى على صخورٍ جرداء، وتربةٍ جافّةٍ.

روت الفتاة للكاهن ما جرى لها، في ذلك اليوم، وكيف ابتسمت السيّدة عندما بلّغتها اقتراح الكاهن بجعل الوردة

تزهر في غير أَوانها، كي يأخذ كلام الرائية على محمل الجدّ. ولكأنّ العذراء توخّت تذكير الكاهن بأَنّ توبة الخطأة عن آثامهم وخطاياهم التي تجرح قلب ابنها، هي أَهمّ، عندها، من معجزةٍ تافهةٍ ستحقّقها، بعد أَيّامٍ، طبيعيًّا، أَشعّة خادمتها الشمس.

وأَضحى القوم يوقفون برناديتّ في الطريق، أَو يتقاطرون إِلى منزل ذويها، كي تسرد لهم تفاصيل رؤاها. وكانت تردّ على استيضاحاتهم، فتُقنع الجميع بنبرة صدقها. وفي بيت ذويها، حيث كلّ شيءٍ ينطق بالفقر، كان قد أُقيم هيكلٌ صغيرٌ جثم فوقه تمثالٌ للسيّدة العذراء، محاطًا بالورود والشموع، والصور المقدّسة. وكان بين الزائرين أَطبّاء، ومحامون، وغرباء عن لورد. وقد زار البيت، يومًا، رجلٌ أَبدى اهتمامًا بالغًا بالظاهرة، ودوّن، بحرصٍ، كلّ كلمةٍ من أَقوال برناديتّ. وقبل مغادرته، وضع على منضدةٍ كيسًا، أَفرج، قليلاً، عن داخله، كي يظهر محتواه من الذهب، فانتفضت برناديتّ استنكارًا، وقالت:

– أَنا لا أَريد شيئًا. استعدْ كيسك!

– إِنّه ليس لك، بل لوالديك المحتاجيْن. ولا يحقّ لك منعي من مساعدتهم.

وحينئذٍ تنطّح له والد برناديتّ، مؤكّدًا:

– لا برناديتّ، ولا نحن، نريد مالاً من أَحد...

هل كان الرجل محسنًا، حقًّا، ابتغى مدّ يد العون، أَو كان أَداةً مدسوسةً من قبل مفوّض الشرطة، كي يتّهم برناديتّ وذويها باختلاق قضيّة الظهورات سبيلاً إِلى اغتنام المال؟

لا ريب أَنّ مفوّض الشرطة قد تأكّد، في ذلك المساء، أَنَّ الفخاخ الماكرة ليست أَقدر من الوعيد والتهديد على الإِيقاع بأولئك الفقراء الشرفاء الحريصين على إِبائهم.

وكان السيّد «إِيستراد» قد التقى، في ذلك الصباح، عند المغارة، عددًا من زملائه المثقّفين، روّاد «المقهى الفرنسيّ»، منهم السيّد «دوفو» المستشار البلديّ، وعضو نقابة المحامين، والطبيب الدكتور «دوزو»، والسيّد «دي لافّيت» الضابط

المتقاعد، وهو سليل أكثر أُسَر لورد عراقةً. جميع هؤلاء كانوا قد جاؤوا متهكّمين. ولكنّهم، بعد مشاهدتهم برناديتّ، في حالة الانخطاف، راحوا يتبارَون في ابتداع أوصافٍ لما شاهدوا، فتدافعت على ألسنتهم، نعوت: «معجز..، سامٍ.. إلهيّ...»

وكان السيّد «إيستراد» كَلِفًا بالمسارح والممثّلات الشهيرات، ولكنّه ردّ على من اتّهموا برناديتّ بالتمثيل، قائلاً: «إن كانت هذه الفتاة تمثّل، فمن المحقّق أنّها تفوق، بلا قياسٍ، أمهر الممثّلات، فنًّا».

وقد أمسى السيّد «إيستراد»، بعد ما شاهده، في ذلك اليوم، إنسانًا آخر، لا يمتّ بعلاقةٍ إلى ما كان من قبل، وهكذا أضحى عددٌ من زملائه. وكان لتحوّله، أثرٌ بيّنٌ على الرأي العامّ، بشأن الظهورات.

الخميس: ٢٥ شباط ١٨٥٨

بدأ زحف الجماهير في الساعة الثانية، ليلاً، من أَجل احتلال الأَماكن التي تمكن المشاهدة، منها، عن كثب. كان الجيران يقرعون أَبواب جيرانهم ونوافذهم لإِيقاظهم، والأَصدقاء يوقظون أَصدقاءهم. وعندما وافت برناديتّ، كان قد سبقها إِلى المغارة زهاء ثلاث مئةٍ وخمسين شخصًا.

ركعت برناديتّ، وشرعت تتلو المسبحة، وما لبثت أَن ظهرت لها الزائرة السماويّة، فعراها الانخطاف، واستغرقت في تأمّل السيّدة بحبٍّ يتعذّر وصفه، وبشعورٍ عميق الغور، غمر نفسها متعةً.

وقد شاءت أُمّ الله أَن تشدّ إِليها تلك الفتاة البريئة بوثاقٍ أَشدّ حميميّةً، وأَن تضفي عليها من المنعة ما يرسّخ لديها

الشعور بأنّها، حتّى في أحلك ساعات المِحَن، ثاويةٌ بين يدي أُمٍّ حنونٍ، كلّيّة القدرة. فقالت لها:

– «يا ابنتي، أُريد أن أُفضي لك، ولك وحدكِ، بسرٍّ أخيرٍ يخصّك شخصيًّا، ولن تبوحي به لأيّ إنسان».

ثمّ أضافت السيّدة، عقب برهة صمتٍ:

– والآن، امضي فاستقي من مياه النبع، واغتسلي بها، وكُلي من العشب النابت حوله.

ناولت برناديتّ رفيقةً لها، كانت جالسةً إلى جانبها، شمعتها وشالها، وتسلّقت زاحفةً على ركبتيها، حتّى أعلى المغارة، فوق الحصباء والحجارة، بسرعةٍ وخفّةٍ مدهشتين، تحت أنظارٍ مشدودةٍ، مراقبةٍ، وهي تقبّل الأرض، بين فينةٍ وفينةٍ. كانت شفتاها تتحرّكان، ولكن، في حوارها مع العالم الآخر، لم يكن يُسمع لها صوتٌ. وبدت تهزّ رأسها تأييدًا، ثمّ عادت، وهي راكعةٌ، إلى قرب النهر.

كانت الفتاة، بُغيةَ تنفيذ رغبة العذراء، قد تلفّتت حواليها، حيث لم يوجد، قطّ، أيّ نبعٍ، فاتّجهت، وعيناها

شاخصتان إلى الطيف السماويّ، إلى النهر الذي كانت مياهه تتدفّق هادرةً. ولكنّ السيّدة، بإشارةٍ وبكلمةٍ، أوقفتها، قائلةً:

– «لا تمضي إلى هناك! فأنا لم أطلب منك الاستقاء من ماء النهر، بل من النبع، وهو ههنا!».

وأشارت السيّدة، بإصبعها، إلى المكان الجافّ، في جهة المغارة اليمنى، حيث كانت بالأمس، قد جعلتها تزحف على ركبتيها. ومع أنّه لم يكن ما يشير إلى وجود نبعٍ، في ذلك المكان، أطاعت برناديتّ أمر الكائن السماويّ، وقصدت، على ركبتيها، المكان المشار إليه، حيث كانت تنبت بعض أعشابٍ. وبإلهامٍ داخليٍّ، طفقت تحفر التربة بيديها النحيلتين. وخفيَ على الحضور الذين ما كانوا يشاهدون الزائرة السماويّة ولا يسمعون حوارها مع الفتاة، مغزى ما كانت الراعية الصغيرة دائبةً على فعله.

وسرعان ما أصبح قعر الحفرة التي أحدثتها الفتاة رطبةً. ومن جوف الصخور أخذ الماء ينبجس، قطرةً قطرةً، ويملأ

الحفرة التي أَمست بحجم كأسٍ. وامتزج الماء بالتراب مكوّنًا طبقة وحلٍ. حاولت برناديتّ حمل ذلك السائل الموحل إلى فمها، ثلاث مرّاتٍ؛ ولكن، في النوبات الثلاث، تغلّب نفورها على محاولاتها. غير أنّها ظلّت حريصةً على الامتثال لرغبة صاحبة الظهور. وفي المحاولة الرابعة تغلّبت على تقزّزها، فشربت من السائل الوحليّ، واغتسلت به، والتهمت قبضةً من العشب النابت عند الصخرة. وحينئذٍ فاض ماء النبع من الحفرة التي أَحدثتها، وسال في ساقيةٍ ضيّقةٍ، لا يزيد عرضها عن عرض قشّةٍ، نحو الجموع المحتشدة أَمام المغارة. وكانت الساقية من الضآلة بحيث استمرَّت التربة الجافّة تمتصّ مياهها حتّى نهاية النهار، فلم تترك دليلاً على وجودها سوى شريطٍ رطبٍ، مرسومٍ على الأَرض، كان يمتدّ، شيئًا فشيئًا، باتّجاه النهر.

وبعد أَن نفّذت برناديتّ كلّ ما أُمرت به، أَلقت عليها العذراء نظرة رضًى، وما لبثت أَن توارت عن أَنظارها.

سلوك برناديتّ أَثار الاستهجان؛ وعندما عادت ملطّخة

الوجه بالوحل تمتم كثيرون: «لقد مسّها جنونٌ!» وحتّى الذين أَعلنوا بالأَمس إِعجابهم، لم يتوانوا عن إِعلان خيبتهم. ما أَوهى إِيمان البشر، وما أَسهل زعزعته!

وعندما تنامى إِلى علم برناديتّ وصف المشاهدين لها بالجنون، بسبب ما فعلته، قالت: «كلّ هذا تكفيرًا عن الخطأة، ومن أَجل ارتدادهم!». وكان نظرها ونبرة صوتها حافليْن بالصدق، والعمق، وبشيءٍ يفوقها.

لمّا تلفّظت الزائرة السماويّة بعبارة «**من أَجل الخطأة**»، أَدركت برناديتّ أَنّ أَكثر دواعي الحزن، في العالم، هو الخطيئة، ولذلك كانت جاهزةً لفعل أَيّ شيءٍ بُغيةَ تعزية «تلك»، الزائرة السماويّة. ولم تندم لأَنّها خيّبت توقّعات الحضور، بل لأَنّها تلكّأت في تلبية رغبة الزائرة الحبيبة.

ما حدَث، في ذلك اليوم، زرع الحيرة والخيبة في قلوب بعض من شرعوا يؤمنون، ووفّر للمشكّكين فرصة التباهي والشماتة. غير أَنّ كثيرين تأثّروا تأثّرًا بليغًا، وتدافعوا، تحدوهم الرغبة في رؤية الحفرة التي انبجس منها الماء، تحت يد

برناديتّ، وكلٌّ منهم راغبٌ في غمس منديله فيها، أو تبليل شفتيه بقطرةٍ من مائها. وسرعان ما اتّخذ النبع الوليد شكل بركةٍ. وبقدر ما كان يُستقى منه، كان يغزر دفقه وتتّسع، باطّرادٍ، الثغرة التي يتفجّر منها قادمًا من الأعماق، تدفعه قدرةٌ خفيّةٌ.

وما انفكّ ذلك النبع يتضخّم، على نحوٍ محسوسٍ، ويرتدي انبجاسه مزيدًا من القوّة. وفي غضون أيّامٍ معدوداتٍ، صفا ماؤه، واشتدّ تدفّقه، وغدا مسيله في مثل حجم ذراع ولد.

وقدّم مدّعو العلم، لذلك الحدث، تفسيرًا لا يقلّ غباؤه وسخافته عن خبث نواياه.

انبجاس النبع أغرق برناديتّ البسيطة المتواضعة في خضمّ صخب الجماهير وفي حميّا اندفاعها، وفضولها لمعرفة كلّ تفاصيل رؤاها للعذراء، وحواراتها معها. وحينئذٍ كانت الفتاة تستمدّ العزاء والقوّة، في فزعها إلى القلعة المحميّة، قلعة

الأَسرار الثلاثة، التي جعلت منها الأُمّ السماويّة حِمًى يسوده السلام، والحميميّة، والاتّحاد بالسماء.

وسرعان ما ذاع النبأ، لا في لورد وحسبُ، بل في شتّى القرى والمدن المجاورة، دافعًا مواكب الحجّاج الذين غدوا يتدفّقون، آلافًا، إِلى المغارة، منذ ذلك المساء.

وبعد ظهر ذلك اليوم، عاد بعضهم إِلى المغارة، وراقبوا الحفرة التي أَحدثتها برناديتّ، وحاولوا الشرب من ذلك السائل الموحل، أُسوةً ببرناديتّ؛ وكان الماء يزداد تدفّقًا وصفاءً، بقدر ما يزداد الحفر والاستقاء، ويتحوّل الوحل إِلى ماءٍ قراحٍ... وشرع القوم يدركون مغزى الرسالة الداعية إِلى ارتداد الخطأة.

ومنذ مساء ذلك اليوم، جيء إِلى مدينة لورد بقارورتين من ماء النبع الوليد الذي غدا أَداة شفاءٍ لعللٍ مزمنةٍ مستعصيةٍ.

وتحرّكت السلطات كي تضع حدًّا لحدثٍ ما انفكّ تأثيره يتّسع. فاستُدعيت برناديتّ ووالداها، إِلى منزل المدّعي العامّ، مساءً، خارج وقت الدوام. وتكرّر ما حدث في مكتب

المفوّض «جاكوميه» من أَسئلةٍ خبيثةٍ، وأَجوبةٍ صريحةٍ واضحةٍ، ومن محاولة تزوير أَقوال الفتاة، وتصويبها لها بجرأةٍ مدهشةٍ، وكأنّ نظراتها تقول له: «كفاك كذب!»، حتّى شعر الموظّف الرفيع أَنّ الفتاة الأُمّيّة تدينه، وتجرحه، وتتغلّب على ذكائه وحبائله.

الجوّ الرسميّ في مقرّ النائب العامّ كان يفرض الرعب على أُناسٍ بسطاء أُمّيّين. غير أَنّ برناديتّ ظلّت رابطة الجأش. كان الرجل المهيب يطرح أَسئلته بسلطةٍ ووقارٍ، وسرعان ما خيّبت أَجوبة برناديتّ كلّ توقّعاته، وأَوقعته في حيرة. ولمّا فشلت المحاولات التي توسّم فيها وسيلةً مجديةً لاكتشاف خدعةٍ لجأ إِلى التهديد والعنف.

– عديني بألاّ تعودي إِلى المغارة.

– لقد سبق لي أَن وعدتُ بالمثول إِليها سحابة خمسة عشر يومًا.

– هذا الوعد الذي قطعتِه لشخصٍ لم يرَه أَحدٌ، لا قيمة له. عليك الإِقلاع عن زيارة المغارة.

– إنّني أَشعر بفرحٍ غامرٍ كلّما زرتها.

– ليس الفرح مرشدًا صائبًا. بل خيرٌ لك أَن تصدّقي الراهبات اللواتي قلنَ لك إنّك واهمةٌ.

– إنّ قوّةً لا تقاوَم هي التي تدفعني!

– وما عساكِ تفعلين، إن زُجّ بك في السجن؟

– عندما سيستحيل عليّ المثول إلى المغارة، لن أَذهب إليها.

وفي محاولة ترهيبٍ أَخيرةٍ، صاح النائب العامّ:

– بلّغوا المفوّض أَن يأتي ويأخذ هذه الفتاة كي تقضي الليل في السجن!

وبغتةً انفجرت بالبكاء والدة برناديتّ التي كانت، منذ ساعتين، واقفةً إلى جانب ابنتها، وكانت الفتاة، أَيضًا، قد ظلّت واقفةً كلّ ذلك الوقت، فكادت تسقط أرضًا. ولحظ النائب العامّ ذلك، فقال:

– ههنا كراسٍ. يمكنكما الجلوس.

لهجته كانت تنمّ عن الشفقة والاحتقار، وقد ميّزتها برناديتّ، فأجابت، لاشعوريًّا:

– لا، فقد نوسّخ كراسيكم!

وفيما تهاوت والدتها على كرسيٍّ قرّبته لها زوجة النائب العامّ، جلست برناديتّ على الحضيض، مادّةً قدميها تحت منضدة الموظّف الرفيع، وكأنّها تؤكّد استعدادها للمقاومة، إلى ما شاء الله. وقد استمدّت التشجيع من الصيحات التي تعالت من الخارج مطالبةً بالإفراج عنها وعن أُمّها، ترافقها ضرباتٌ قويّةٌ متلاحقةٌ على نافذة مكتب المدّعي العامّ، الذي هدّدها بالسجن لأنّها تدفع الحشود على التوافد إلى المغارة. فأجابت:

– ما عليك إلاّ أن تمنعهم. فأنا لا أطلب من أحدٍ أن يأتي إلى المغارة.

– ولكنّك، أنت، تؤمّينها.

– أجل، فقد وعدتُ.

لقد أَبدت برناديتّ، أَمام المدّعي العامّ، جرأةً مدهشةً، وتحدّيًا نادر المثال. وقد اعترف الشرطيّ الذي راقب المشهد: «لا ريب أَنّ هذه الصغيرة قدّيسةٌ أَو ملهمَةٌ، كي تحتفظ بمتانة الأَعصاب التي برهنت عنها».

وما انفكّ قرع النوافذ يشتدّ لجاجةً، ونظّم جيران آل سوبيروس وأَصدقاؤهم تظاهرةً حاشدةً، صاخبةً، فاضطرب النائب العامّ، حتّى باتت ريشته تخطئ فوّهة المحبرة. وعقب محاولةٍ أَخيرةٍ علّها تنقذ ماء وجهه، أَمر بإِطلاق الفتاة وأُمّها، ثمّ أَتلف محضر الاستجواب الذي كان دليلاً فاضحًا على اضطرابه، وما عتّمت قصّة ذلك المحضر أَن أَصبحت موضع تندّر القوم.

لا ظهور
في السادس والعشرين من شباط ١٨٥٨

صباح السادس والعشرين من شباط مُنِعَت برناديتّ من الشخوص إلى المغارة، وقيل لها إنّ المنع صادرٌ عن جهاتٍ عليا. ولكنّها تحدَّته وعصته. وكان مئاتٌ من الناس قد احتشدوا أَمام منزل ذويها، وحشدٌ أَكثر كثافةً كان قد تراصّ عند المغارة ينتظرها. بحزمٍ وجرأةٍ، تدثّرت برناديتّ بسترتها ذات القلنسوة، ومضت...

كثيرون كانوا يعتزمون التبرّك بلمس ثيابها الخَلِقة. وخشيت عليها الأُمّ السماويّة من إِفساد تكريم الجماهير المفرط لبراءتها وتواضعها.

لزم برناديتّ جهدٌ شاقٌّ، كي تصل إِلى «مكانها»، حيث

ركعت، وتلت المسبحة. ولكن لم يحدث أَيّ ظهورٍ. وقامت بطقوس التكفير عن الخطأة، وتوسّلت، ولكن لم يحدث ظهورٌ. وهتف الجمع: «فلنركع جميعنا!».

ولكنّ الزائرة السماويّة لم تظهر. واغتسلت برناديتّ بماء النبع الذي كان قد صفا في أَثناء الليل، وصلّت، بلا جدوى، إِذ لم تظهر أَيّةٌ من علامات الاستنارة والإِشراق التي كان يتجلّى بها وجهها، كلّما حضر الطيف السماويّ. فنهضت، وأَعلنت أَنّها لم ترَ شيئًا، في ذلك الصباح. وقد رسّخ غياب العذراء في يقينها، أَنّها بذاتها، ليست بشيءٍ.

وحاول المقرّبون منها مواساتها، ولكن ما من مواساةٍ كانت تسرّب إِلى قلبها العزاء. بل كانت لا تني تتساءل، بحزنٍ وقلقٍ: «بمَ أَغضبتُها؟».

وفي هذه الأَثناء ما انفكّ ماء الساقية المنطلق من الحفرة التي كانت الفتاة قد أَحدثتها، بأَمرٍ من العذراء، ينبع، ويترقرق، وينساب، تحت أَنظار الجميع، مثيرًا الدهشة، ومنتزعًا تسبيح الربّ.

توارت العذراء، في ذلك اليوم، ولكنّ عملها ظلّ يتحدّث عنها، ولا سيّما أَنّ أَشفيةً عجيبةً قد تحقّقت بواسطة ماء النبع.

وفي تلك الليلة تلألأت المغارة وجوارها بآلاف الشموع التي أَشعلتها تقوى المؤمنين، ورغم غياب الإكليرُس، مزّقت صمت الليل، وأَطربته، أَناشيد مدويّةٌ، مشيدةً بأَفضال الأُمّ السماويّة، وبكراماتها الفائقة.

ظهورات تكفيريّة في ٢٧ و٢٨ شباط

حضرت الزائرة السماويّة، في الموعد، صباح السابع والعشرين من شباط، وكانت الحشود قد ازدادت كثافةً، رغم خيبة اليوم السابق. وقد اندسّ بين الحضور مدير مدرسة لورد العليا، الذي لم يجد إلى النوم سبيلاً، إذ إنّ قرع القباقيب تحت نافذة بيته أقلقه منذ الساعة الثانية ليلاً، وما انفكّ يتسارع ويتفاقم ضجيجه.

وافى الأُستاذ إلى المغارة تحدوه الرغبة في سكب أنوار عقله وذكائه على تلك القضيّة الغامضة. وراقب برناديتّ عن كثب، فلم يستسغ سيرها على ركبتيها، وتقبيلها الأرض. ولكنّه قدم، أيضًا، إلى منزل ذويها مساءً، كي يقنعها بالإقلاع عن الذهاب إلى المغارة، لكيلا تفقد عقلها تمامًا. غير أنّ أجوبتها التي اتّسمت بالموضوعيّة، والبدهيّة،

والسذاجة، والفتنة، زعزعت قناعاته، وأَثبتت اتّزانها العقليّ والنفسيّ. لقد فتنت تلك الطفلة الأُمّيّة الأُستاذ المدّعي، وأَذهلته صراحتها، وثقتها بنفسها. وقد فسّرت، بكلّ بساطةٍ، تحرّكاتها التي استهجنها الأُستاذ، مثل سيرها على ركبتيها، وتقبيلها الأَرض بقولها:

«فعلتُ ذلك، تكفيرًا عن خطاياي، أَوّلاً، ثمّ عن خطايا الآخرين».

وارتبك الأُستاذ، فأَنوار عقله، القادرة على تبديد الخرافات الشعبيّة، لم تستطع النيل من ذلك النقاء، ومن تلك الشفافيّة.

واستأنفت برناديتّ طقوس التكفير في اليومين التاليين، أَمام جمهورٍ ما انفكّ عديده يتضخّم. وقد ارتقى عدد الحضور، يوم الأَحد ٢٨ شباط، إِلى ١١٥٠ شخصًا.

ووافى، في ذلك اليوم، أَيضًا، أَحد قادة الأَمن، باحثًا عن إِجراءات الأَمن اللازمة لوقاية الجموع التي لا تني حشودها تتكثّف، والتي كانت تُحشَر بين منحدرٍ هاوٍ، وضفاف النهر.

شهادات وعجائب

يوم الإثنين الموافق الأوّل من آذار، بدأ الزحف إلى المغارة، منذ منتصف الليل، وبلغ عدد الحضور نحو ١٥٠٠ شخص. كان الجوّ خاشعًا، وارتُجلت الصلاة. وشوهد، للمرَّة الأولى، بين الحضور، كاهنٌ قادمٌ من خارج لورد، ومن ثمّ كان يجهل حظر كاهن الرعيّة على رجال الإكليرُس، المجيء إلى المغارة. وأفسح له الحضور إمكانيّة التقدّم حتّى الصفّ الأوّل. وقد وصف، لاحقًا، انطباعاته عن برناديتّ بقوله:

«ابتسامتها تستعصي على كلّ وصفٍ. أمهر رسّامٍ أو ممثّلٍ يعجز عن إبراز فتنتها.

«ما أدهشني هو مزيج الفرح والحزن اللّذَيْن كانا يرتسمان على محيّاها بالتناوب، ويتعاقبان بسرعة البرق، ولكن بلا نَزَقٍ ولا مباغتةٍ، بل في تعاقبٍ متناغمٍ رائعٍ. كنت قد راقبت

الفتاة، وهي في طريقها، بدقّةٍ. وأَيّ بونٍ بين ما كانت عليه حينئذٍ، وما شاهدته في الانخطاف!

«لقد ساد، في كلّ مكانٍ الخشوع، والصمت، والاحترام. وكم كان الجوّ رائعًا! حسبت نفسي، عند أَعتاب الفردوس!».

في ذلك اليوم، حدث، في المغارة، أَوّل الأَشفية السبعة التي سيعتبرها الأُسقف عملاً إِلهيًّا، بعد تحقيقاتٍ مستفيضةٍ قامت بها، لاحقًا، اللجنة الأُسقفيّة، بمشاركة الطبيب، البروفسّور «فيرجيس».

ففي عزّ الليل، يمّمت «كاترين لاتابي» (Latapie) شطر لورد، من قريتها التي تبعد عنها نحو سبعة كيلومترات. كانت في شهر حملها التاسع، وقد استصحبت ابنيها الأَصغرين. وكانت قد دفعتها إِلى المغارة دفعًا، قوّةٌ لم تفهم مصدرها، ولم تقوَ على مقاومتها. وكانت، في شهر تشرين الأَوّل من عام ١٨٥٦، قد تسلّقت سنديانةً كي تجني حبّات بلّوطٍ تطعم بها خنازيرها، فسقطت. واستطاع الطبيب إِصلاح خلع ساعديها، ولكنّ اثنتين من أَصابع يدها اليمنى بقيتا

مطويّتين، ومشلولتين، ما جعلها عاجزةً عن الغَزْل، وعن الحياكة، وعن كلّ عملٍ يدويٍّ، وأفضى بها هذا العجز إلى الإفلاس.

شاهدت، مع طفليها، ظهور العذراء لبرناديتّ، ثمّ صعّدت إلى أعماق المغارة، حيث منبع الساقية التي باتت تسيل حتّى نهر الغاف، وغطّست فيها يدها، فاجتاحها ألمٌ شديدٌ، وبغتةً استعادت إصبعاها ليونتهما وحركتهما الطبيعيّة. غير أنّ آلام المخاض فاجأتها، في تلك اللحظة، وأجبرتها على إيجاز صلاة شكرها، فتمتمت:

– أيّتها العذراء القدّيسة، لقد شفيتني، منذ لحظاتٍ، فهبيني أن أعود إلى بيتي. وفي الحال أخذت كلاًّ من طفليها بيده، واجتازت، بسرعةٍ، الكيلومترات السبعة، حتّى بيتها، في قرية «لوباجاك». وفور وصولها، وضعت، بلا مساعدةٍ، وتقريبًا، بلا وجعٍ. ولمّا حضرت القابلة، كان الصبيّ الوليد يصرخ، وقد سمّي «جان باتيست» (يوحنّا المعمدان)، وأصبح، في ما بعد، كاهنًا.

أُسقط في يد مدّعي العلم، ومنكري كلّ تدخّلٍ سماويٍّ، وكلّ ما يتخطّى نواميس الطبيعة، فألحّوا على عمدة لورد كي يصدر أمرًا بمنع الحضور إلى منطقة المغارة، وهم واثقون من أنّ الاندفاع الشعبيّ سيحمل الجموع على عصيان هذا الأمر، فتتسنّى للسلطة ذريعة استخدام العنف، والاقتصاص من الحجّاج، أملاً في ثنيهم عن السعي وراء الخزعبلات. غير أنّ العمدة الذي عُهدت عنه الاستقامة، رفض التدخّل في أمرٍ لم يتبيّن صحّته من زيفه، تاركًا للسلطات الروحيّة أمر البتّ في ما يتعلّق بالدين، وللسلطات المدنيّة، اتّخاذ التدابير الأمنيّة اللازمة.

ومع ذلك، كان كلّ يومٍ يشهد مثقّفين ينشقّون عن صفوف جماعتهم. وكانوا، غالبًا، أطبّاء يشهدون أشفيةً لا يجدون لها، في علمهم، تفسيرًا، ويلمسون واقعًا لا سبيل إلى إنكاره.

وأثبتت الوقائع صدق برناديتّ. فالنبع قد تفجّر، وتدفّقت مياهه. وأكّدت المعجزات تدخّل السماء، ولم يعُد لكاهن

الرعيّة مسوّغٌ لطلب براهين إثباتٍ إضافيةً. وجاءته برناديتّ، ثانيةً، في الثاني من آذار، كي تبلّغه رغبة العذراء، بإشادة مصلًّى، وبتنظيم تطوافاتٍ.

لم يكن الطيف السماويّ، بعدُ، قد أفصح عن اسمه. ولكنّ الكاهن تعرّف فيه العذراء، من خلال مواهبها الأُموميّة، وربّما كان، في سرّه، ينهي صلواته، بقوله: «يا سيّدة لورد، صلّي من أجلنا». غير أنّه ظلّ ملتزمًا الحيطة، مانعًا معاونيه من الشخوص إلى المغارة، لكيلا يُفَسَّر حضورهم تأييدًا لصحّة الظهورات، قبل إعلان السلطات الكنسيّة رأيها في الأمر.

ولذلك، أكّد لبرناديتّ أنّه مع تصديقه لها، لا يسعه سوى العمل بتعليمات الأُسقف، وأنّه سيلتمس توجيهاته بهذا الشأن.

وكان الأُسقف لورانس، بالفطرة وبالخبرة، ميّالاً إلى روز الأُمور بحرصٍ، وإلى تمحيصها بدقّةٍ، قبل إصدار أيّ حكمٍ، متحسّبًا لعواقب قراراته وانعكاساتها. وبما أنّه كان مقتنعًا بأنّ

الحقيقة تفرض، دائمًا، ذاتها، عاجلاً أو آجلاً، كان يعتصم بالصبر. وكان إحساسه العميق بمسؤوليّاته التي تنعكس على الكنيسة عامّةً، يحمله على التريّث. لقد كان يقرن بساطة المرسل بحنكة الدبلوماسيّ.

أصغى الأُسقف إلى رواية الأَب پيرامال، وأُحيط علمًا بالأَحداث المعجزة التي أَصبحت لورد مسرحًا لها خلال أَسابيع ثلاثة، وبانخطافات برناديتّ ورؤاها، وبأَقوال الزائرة السماويّة، وبانبجاس النبع، وبالأَشفية الفوريّة، وبمدى تأثّر الجماهير. ولكنّ هذه الرواية لم تنفذ إلى قناعاته، في الحال.

كان قد أَلِف تلقّي الحقيقة والأَوامر من أَعلى، من الكرسيّ الرسوليّ، ولكنّه لم يألف ما يفوقه من أَسفل، من راعيةٍ قرويّةٍ جاهلةٍ. غير أَنّه كان مطّلعًا على تاريخ الكنيسة الحافل بمثل هذه الأَحداث، التي، مع غرابتها، أثبتت صحّتها، ومناعتها، وعمق تأثيرها الواسع. نظير توما، كان حريصًا على المشاهدة قبل أَن يؤمن، ولكنّه عندما كان يؤمن، كان الجميع يؤمنون معه، واثقين من سلامة معتقده ومناعته.

وبما أنّ كاهن الرعيّة لم يكن، حينئذٍ، شاهد عيان، واقتصر على رواية ما سمعه، فقد تعذّر عليه إقناع الأُسقف، الذي، أكثر حكمةً من توما، مع امتناعه عن تصديق كلّ شيءٍ لم ينكر، وتريّث قبل إصدار أيّ حكمٍ، خشية أن يؤدّي خضوعه للضغط الشعبيّ إلى إعلانٍ مُبْتَسَر. آثر أن تواصل الأُمور السير في مجراها، وأن تتكامل الأَحداث، فتتفجّر الحقيقة باهرةً لا لبْس فيها. التزم «ببطءٍ حكيمٍ»، حسب وصفه. وكلّف أَشخاصًا موثوقين، مشهودًا لهم بالدراية وسداد الرأي، من خارج الإِكليرُس، بمراقبة ما يجري عن كثبٍ، وبإِطلاعه بدقّةٍ. وهكذا بدأ، في الواقع، بإِجراء تحقيقٍ، لا من خلال لجانٍ تضمّ عددًا ضئيلاً من الأَشخاص، بل من خلال مراقبة الكثيرين، ومن خلال قوّة الأَحداث.

ولكن إن آثر الأُسقف اللجوء إلى الصبر والتأنّي، سبيلاً إلى حلّ العقدة، فقد قرَّر محافظ لورد حلّها بالبتر، منعًا لنموّ خرافة. فهو كان مناوئًا لكلّ ظاهرةٍ فائقة الطبيعة. فأَمر بمراقبةٍ ساهرةٍ وشديدةٍ لكلّ ما كان يجري في المغارة وجوارها. وجنّد لهذه الغاية، كلّ جنود الموقع، والدرك، والشرطة. وكان من

شأن هذه التدابير، إثارة غضب الشعب الذي احتفظ، حتّئذٍ، بهدوئه وانضباطه. وربّما راهن أَعداء الظاهرة على ذلك التوتّر، وتلك الفوضى.

في تلك الأَثناء، كانت الطرق المؤدّية إِلى لورد، تزدحم بالمواكب الزاحفة إِليها من المدن والقرى والدساكر المجاورة، في مركباتٍ من كلّ نوعٍ، أَو سيرًا على الأَقدام. ولم يكن حتّى الليل يوقف هذا الزحف. فقد كان سكّان الجبال يهبطون مستنيرين بضوء القمر والنجوم، كي يقفوا، عند بزوغ الشمس، عند مدخل المغارة.

كنيسةٌ صغيرةٌ وتطوافٌ: ٢ آذار ١٨٥٨

في الثامن من شهر آذار، بعد أن أفاقت برناديتّ من انخطافها، أمام ١٦٥٠ شخصًا، شخصت إلى مقرّ كاهن الرعيّة، حيث كان قد سبقها عددٌ من السيّدات التقيّات، اللواتي تلقّفن رسالة العذراء لها:

– اذهبوا وبلّغوا الكهنة رغبتي في أن يأتي الناس إلى هنا في تطوافٍ، وأن تُبنى لي كنيسةٌ صغيرةٌ.

الوفد الذي وافى إلى دار الرعيّة كان قد حفظ طلب العذراء الأوّل: التطواف، فهو العاجل... والذي لا بدّ منه للاحتفال باليوم الكبير، بعد غدٍ الخميس، الذي يختتم فترة الخمسة عشر يومًا. لم تكن برناديتّ قد قالت شيئًا بهذا الشأن، ولكنّه كان بدهيًّا للنسوة اللواتي حضرن إلى دار الرعيّة.

وقد استقرّ في خَلَد كاهن الرعيّة، الأَبّ پيرامال، يقين استحالة السماح بتطوافٍ، في حين كانت السلطات المدنيّة الرسميّة موطِّنةً العزم على منع التوافد المحموم إلى المغارة، وتأكّده من معارضة الأُسقف لهذا المشروع، وما قد ينجم عنه من مشكلات.

غير أنّ غيظًا دفينًا كان يجيش في داخله، وهو يرى نفسه مكرهًا على تجاهل دافعٍ قويٍّ إلى الإيمان يعتمل في نفسه، وهو يشهد ثمار النعمة الماضية نضوجًا في رعيّته. وقد تفجّر صراعه الداخليّ واحدةً من سورات الغضب الهادر التي كانت تجتاحه في المواقف العصيبة، وقد انصبّت حممها على وفد النسوة التقيّات اللواتي طالبنَ بالتطواف.

بُعَيْد ذلك، وصلت برناديتّ بدورها، برفقة اثنتين من خالاتها، وهي جاهلةٌ أَنّ نسوةً سبقنَها، وطالبنَ بتنظيم تطوافٍ، يوم الخميس المقبل، فأَثرن غضب الكاهن، الذي استقبل الفتاة ومرافقتيها أَسوأ استقبالٍ، ونعت أُسرتها بأسوأ النعوت، وطردهنّ جميعًا بجفاء.

وفيما كانت برناديتّ عائدةً خائبةً، تذكّرت الشطر الثاني من رسالة العذراء المتعلّق ببناء كنيسةٍ صغيرةٍ، فعادت بمفردها، وحدّدت موعدًا مع الكاهن، في الساعة السابعة مساءً، آملةً أن يكون رجل اللّه قد استعاد، حينئذٍ، سكونه.

وفي المساء التقت مجموعةً من الكهنة، وبلّغتهم الشطر الثاني من رسالة العذراء:

– بلّغي الكهنة أن يسعوا إلى بناء كنيسةٍ صغيرةٍ هنا.

وسألها كاهن الرعيّة:

– «هل أنت واثقةٌ من ذلك؟

– أجل، واثقةٌ!

وسألها عن العبارات التي استخدمتها السيّدة، مطالبةً بالتطواف. ولكنّ تلك العبارات كانت قد امّحت، بحرفيّتها، من ذاكرة برناديتّ.

وسألها الكاهن ثانيةً:

– أما زلت تجهلين اسمها؟

– أَجل، أَبتِ، أَجهله.

– إِذن، استوضحيها عنه!

* * * * * *

الأَربعاء ٣ آذار

منذ الساعة الثانية ليلاً، انطلق الزحف نحو المغارة. طلائع الواصلين كانوا يصلّون بخشوعٍ. غير أنّ تقاطر القوم المستمرّ، من كلّ صوبٍ، من لورد ومن القرى المجاورة، وسعي كلّ قادمٍ إلى احتلال المكان الأَقرب من «مطرح برناديتّ»، قد عكّر جوّ ذلك الخشوع.

مع طلوع الشمس، في الساعة السادسة، كان عدد القادمين يناهز أَربعة آلاف. وقد اجتاز بعضهم أَكثر من عشرين كيلومترًا للوصول إلى مغارة مسّابييل. عناقيدُ بشريّةٌ تراكمت، وغطّت سفح المنحدر المطلّ على المغارة، حيث كان كلٌّ منهم متشبّثًا بصخرةٍ بارزةٍ، اتّقاءً من الانزلاق.

وصلت برناديتّ في الساعة السادسة، برفقة أُمّها وخالتها، ومن جرّاء الازدحام والتدافع، كُسرت الشمعة التي كانت

تحملها. بمشقّةٍ عثرت على مكانٍ تركع فيه، ويمكنها منه مراقبة الصخرة التي أَلِفت الزائرة السماويّة أَن تظهر عليها. وكان على الحاضرين أَن يظلّوا واقفين، إِذ لا سبيل إِلى الركوع في غمرة ذلك الازدحام.

تلت برناديتّ المسبحة، وعيناها شاخصتان إِلى الصخرة المباركة، ولكن وسط الصخب السائد، والأَقوال المقذعة التي انطلقت من هنا وهناك، لم تظهر الزائرة السماويّة. فعادت برناديتّ إِلى مدرستها، ساهمةً، حزينةً، خائبةً. وتكاثرت الأَقاويل والتخرّصات في تفسير غياب السيّدة.

عقب فترة الدراسة الصباحيّة، والغداء، اعترى برناديتّ شعورٌ امتزج فيه الرجاء بالقلق. وشدّها جاذبٌ داخليٌّ ملحٌّ، توسّمت فيه دعوةً من «تلك»، كما هي تدعو الزائرة السماويّة، فيمّمت، برفقة خالتها، وبأَكثر ما استطاعت من كتمانٍ، شطر المغارة، ثانيةً، حيث وجدت السيّدة تنتظرها، باشّة الأَسارير. وكان ظهورها قصيرًا، ولكن فائق العذوبة.

وفي ذلك المساء، عادت إِلى دار الرعيّة، كي تؤكّد للأَب

بيرامال إصرار السيّدة على بناء مزارٍ لها، حيث كانت تظهر، وكان الكاهن، في صباح ذلك اليوم، قد تحاور مع زملائه، في مدينة «تارب» المجاورة، بشأن الظهورات، فسألها:

– هل استوضحت السيّدة عن اسمها؟

– أجل، ولكنّها اكتفت بالابتسام!

– إنّها تسخر منك.

بيد أنّ ما كان الكاهن يشهده، في رعيّته، من اضطرام التقوى، ومن تحوّلاتٍ روحيّةٍ مدهشةٍ، كان يغذّي لديه الرجاء، فخطر له طلب إشارةٍ تبدّد حيرته. وتذكّر ما كان قد حدث في «غوادا لوپي» (المكسيك) في القرن السادس عشر، حيث جعلت العذراء الجبل يُنبت أزهارًا، في عزّ الشتاء. فقال لبرناديتّ:

– إن هي كانت تبتغي، حقًّا، بناء كنيسةٍ لها، فلتفصح عن اسمها، ولتجعل وردة المغارة البرّيّة تتفتّح وتزهر، الآن، في غير أوانها، وحينئذٍ سنبني لها كنيسةً لن تكون صغيرةً، بل كبيرةً جدًّا.

«اليوم الكبير». الخميس ٤ آذار ١٨٥٨

كان الجميع يتوقّعون حَدَثًا فائقًا، في ذلك اليوم الأَخير من الخمسة عشر يومًا التي طلبت العذراء، حضور برناديتّ إِلى المغارة، في أَثنائها.

وتوقّع المسؤولون الحكوميّون توافد جموعٍ غفيرةٍ قد يبلغ عديدها العشرين أَلفًا، فاستنفروا كتائب شرطةٍ ودركٍ من مختلف القرى والمدن المجاورة.

وفي الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الأَربعاء، وافى مفوّض الشرطة إِلى مغارة مسّابييل، وتفقّد كلّ جوانبها وتجاويفها، بغية التحقّق من عدم وجود وسائل خداع قد توهم الجماهير بحدوث معجزات. وقد أَدهشته رؤية المغارة مشعشعةً بالشموع المشتعلة، وبوجود قومٍ يصلّون بخشوعٍ في مثل تلك

الساعة. ثمّ عاد وتفقّد المكان ثانيةً، في الساعة الخامسة صباحًا، ولكن بمشقّةٍ. فقد كانت المغارة غاصّةً بالمصلّين، وكانت عناقيد بشريّةٌ متشبّثةً بكلّ نتوءٍ صخريٍّ فوق المغارة. وكانت الجموع قد تقاطرت من كلّ الوديان المجاورة.

في الساعة السادسة كانت جميع عناصر أمن الجوار مستَنفَرةً أمام دار البلديّة وعلى الطرقات المؤدّية إلى المغارة. وقد أظهر نور النهار حشودًا متراصّةً على ضفّتي نهر «الغاف»، حيث اختلطت أزياء المناطق المختلفة. ولم تكن تلك البقعة قد شهدت، قطّ، مثل هذا الحشد. ومع ذلك، كان يسود المكان خشوعٌ قدسيٌّ قلّما يُشاهد له نظيرٌ في كنيسةٍ، والصلوات متواصلةٌ. وكان تدفّق الجموع المستمرّ يحاكي تدفّق نهر «الغاف» الذي لا يُسمع له سوى وسوسةٍ رتيبةٍ.

وكان آل سوبيروس متأهّبين للمثول إلى المغارة، منذ الساعة الخامسة صباحًا. غير أنّ ثلاثة أطبّاء، وصلوا، حينئذٍ، من مدينة بوردو، بغتةً، على غير موعدٍ، بُغيةَ فحص برناديتّ جسديًّا وعقليًّا، فاستجوبوها مطوّلاً، إلى أن بلّغتهم الفتاة أنّ

ظروفًا قاهرةً تجبرها على مغادرة البيت في الحال، فعليهم الانصراف، على أن يعودوا لإتمام مهمّتهم، بعد الظهر، إن هم شاؤوا. ثمّ كان على الأُسرة حضور قدّاسٍ مقامٍ لراحة نفسٍ قريبةٍ توفّيت في اليوم السابق. ومن جرّاء هذه الظروف لم يتسنَّ لبرناديتّ الوصول إلى المغارة في الساعة السابعة، وهو الموعد الذي لم تتخلّف عنه، قطّ. وأخذ القلق يجيش في قلوب الناس، وخشي مفوّض الشرطة أن يتحوّل القلق إلى ثورةٍ وشغبٍ، فكلّف شابًّا مشهودًا له بالبطولة والحنكة استجلاء الأمر. وانطلق الشابّ كالسهم، وما لبث أن عاد بعد أقلّ من عشر دقائق، معلنًا وصول الفتاة.

وما إن ظهرت برناديتّ، برفقة أُمّها، وقريبةٍ لها كانت قد تعهّدت بإبقائها إلى جانبها في المغارة، حتّى انطلقت آلاف الحناجر بالهتاف. وهُرِع رجال الأمن كي يُساعدوا برناديتّ على شقّ الصفوف، والوصول إلى مكانها المعتاد في المغارة. هذه المبادرة أسهمت في إخماد نقمة الجموع على السلطات الحكوميّة التي طالما وقفت من برناديتّ موقفًا سلبيًّا، مناوئًا.

ركعت برناديتّ، فهبط آلاف الحاضرين على ركبهم خُشّعًا، والعيون شاخصةٌ إلى طيف الفتاة، وإلى صخرة الظهور. أشعلت برناديتّ شمعتها، فساد الصمت، نابضًا، حارًّا، وكان التأثّر بالغًا، بقدر ما كان إقبال الجموع كثيفًا، والتوقّعات طموحةً. فقد كان كثيرون يتوقّعون معجزةً.

وشرعت برناديتّ بتلاوة المسبحة، غير عابئةٍ بآلاف الأنظار المحدّقة إليها، والمراقِبة لكلّ حركاتها، وأشارت إلى الحاضرين أن يشاركوها الصلاة، فانزلقت آلاف الأصابع فوق حبّات المسابح. وجهد كثيرون ممّن كانوا قد أقلعوا، منذ سنواتٍ، عن الصلاة، في تذكّر كلمات «السلام». وكم كانت عبارة: «صلّي من أجلنا، نحن الخطأة...» بليغة المغزى لهم!

وعند «السلام» الثالث من العشريّة (البيت) الثانية، ظهر الشحوب على برناديتّ، وافترّت شفتاها عن ابتسامةٍ، وبدا أنّها غابت عن العالم الخارجيّ. وقد دهش جميع الذين تسنّت لهم مشاهدة الفتاة بوضوحٍ، أمارات سعادةٍ حقّةٍ، تغشى نفسها، سعادةٍ تتخطّى كلّ ما عهدوه، أو تخيّلوه،

حتّئذٍ، من سعادةٍ. ولكأنّهم كانوا يقاسمونها سعادتها. فبترديدهم «السلام عليك يا مريم»، كان يعتريهم شعورٌ بأنّ تلك التي يحيّونها ويتضرّعون إليها، حاضرةٌ بينهم، وقريبةٌ منهم.

كانت برناديتّ تتابع، ببطءٍ، تلاوة المسبحة، وهي تارةً تُحيّي، وتارةً تبتسم. ثمّ رفعت إلى جبينها أصابعها الثلاث حاملةً إليه الصليب. ولكنّها لم تقوَ على إكمال حركتها، وكأنّ يدها ارتطمت بمقاومةٍ عنيدةٍ. وحاولت، ثانيةً، ولكنّها فشلت مرَّةً أُخرى، ولكنّها، في المحاولة الثالثة، تمكّنت، بيُسرٍ، من إتمام ما شرعت به، ورسمت إشارة صليبٍ، طالما أدهشت، بمثلها، مشاهديها. وقد أوضحت، لاحقًا، أنّها حاولت رسم إشارة الصليب قبل أن تقوم السيّدة برسم تلك الإشارة، ففشلت، ولكن عندما رسمت السيّدة إشارة الصليب، تيسّر لها محاكاتها، محاكاةً رائعةً.

كان قد انقضى نصف ساعةٍ، منذ بدء الظهور، عندما نهضت برناديتّ، وشمعتها بيدها، ومرَّت فوق حجرةٍ كبيرةٍ،

لم تلحظها، وتقدّمت إلى داخل المغارة مشرقة المحيّا، فرحةً، وأومأت بتحيّةٍ. بدت وكأنّها تخاطب كائنًا يقف إزاءها وجهًا لوجهٍ. كانت شفتاها تتحرّكان، ولكن لا يتسرّب منهما أيّ صوتٍ إلى الخارج. بغتةً اكفهرّ وجهها مدى ثلاث دقائق، واستأنفت تلاوة المسبحة التي تخلّلتها تحيّاتٌ وابتساماتٌ، على مدى ربع ساعةٍ. ورنت صوب صخرة الظهور، ورسمت إشارة صليبٍ، وتخشّعت لحظاتٍ، ثمّ نهضت. وكانت السيّدة قد توارت منذ هي فرغت من تلاوة المسبحة. أطفأت الفتاة شمعتها، وبصمتٍ سلكت طريق العودة إلى لورد، غير مهتمّةٍ بالجموع التي تلتهمها بأنظارها.

دقّت الساعة الثامنة. وكان الظهور، في ذلك اليوم، هو الأطول مدّةً، فقد دام ثلاثة أرباع الساعة. وانطلق الجمهور، وكأنّه خارجٌ من قدّاسٍ. ولكانت خيبته ذريعةً، لولا جوّ الصلاة والفرح الذي كان سائدًا طيلة وقت الظهور. فالعجائب التي توقّعها القوم لم تحدث، وحقّ للمسؤولين الحكوميّين أن يزدهوا فرحًا وفخرًا. فقد مُنيت الجموع بخيبة أملٍ كان المسؤولون يتمنّونها. ورغم الازدحام الشديد، ساد

الهدوء، ورأى الدائبون على مكافحة فكرة المعجزات، في إنجازهم هذا، «معجزة».

ومع ذلك بلغ الازدحام أَمام منزل آل سوبيروس، أَشدّه، قُبَيْل ظهر ذلك اليوم، وقد انتظم، ثمّة، طابورٌ متمادي الطول، طابور الراغبين في رؤية برناديتّ، وفي تقبيلها، ملتمسين منها لمس مسابحهم لمباركتها، رغم اعتراضها الشديد، ومقتطعين نتفًا من ثوبها، إِلى أَن انتهز ذوو برناديتّ فرصة انصراف الناس إِلى تناول الغداء، كي يغلقوا باب بيتهم. وحينئذٍ تسنّى لبرناديتّ المثول إِلى مقرّ كاهن الرعيّة، وتبليغه رسالة العذراء. وكان كاهن الرعيّة بانتظارها، فبادرها بالسؤال:

– «ماذا قالت لك السيّدة؟

– استوضحتها عن اسمها، فابتسمت. والتمست منها أَن تجعل وردة المغارة تزهر في غير أَوانها، فابتسمت ثانيةً. ولكنّها أَصرّت على بناء كنيسةٍ صغيرةٍ لها.

– وهل لديكِ، أَنت، من المال، ما يمكّن من بناء هذه الكنيسة؟

– كلاّ، يا أَبتِ.

– وأَنا، مثلك، لست أَملك مالاً. فاسألي السيّدة أَن تعطيك بعضًا منه!

خاب أَمل الكاهن، وأُسقط بيد برناديتّ، لأَنّها لم تظفر بالجواب المطلوب.

لقد آثرت العذراء أَن تفصح أَعمالُها عن هويّتها، وأَن تتعرّفها القلوب، وتمجّدها، قبل أَن تجيب: «لم تخدعكم قلوبكم. أَنا هي!».

وكان مدير مدرسة لورد العليا قد دعا برناديتّ إِلى بيته، كي يحرّرها من مطاردة الجماهير لها. وكم دهش عندما رآها تأتيه، وتجلس أَرضًا، وتشارك ابنته البالغة من العمر أَربع سنواتٍ أَلعابها! ولكن، سرعان ما حاصرت الجموع منزل ذويها ثانيةً، ثمّ اكتشفت مخبأها. وفي هذه الأَثناء، حضر إِلى منزل ذويها الأَطبّاء الثلاثة الذين كانوا قد عاينوها في الصباح، من أَجل إِتمام مهمّتهم، فاضطرّ والدها للعودة بها إِلى المنزل. وعاد طابور الزائرين يمتدّ حتّى الليل، وكان

الإرهاق قد نال من برناديتّ، فطلبت أن يغلق الباب بالمزلاج.

لثلاثة أيّامٍ خلت، كان المحقّق قد وصف بيت آل سوبيروس بالكوخ القذر المعتم، وإذ به يصبح المكان المميّز الذي يتراصّ القوم أمام بابه، تراصَّهم أمام قصرٍ ملكيٍّ. كثيرون كانوا راغبين في التبرّع بمالٍ، أو في تقديم هدايا، ولكنّ برناديتّ كانت ترفض ذاك المال، وتلك الهدايا، بحزمٍ، وكلّما حاول أحدٌ دسّ نقودٍ في يدها كانت تردّها بحدّةٍ، قائلةً:

– «إنّها تحرقني!».

وحسنًا كانت تفعل، إذ كان ذوو النوايا الخبيثة ينصبون لها فخاخًا، كي يثبتوا ادّعاءَها رؤية العذراء، بغية الابتزاز، وجمع المال.

وفي تلك الفترة ذاعت شائعاتٌ تقول إنّ أشفيةً عجيبةً حدثت بفضل برناديتّ. فقد اتّفق أن صادفها رجلٌ وهي قادمةٌ، ذات صباحٍ، إلى المغارة، والتمس منها أن تتوسّل من أجل شفاء ابنته التي كانت متلفّعةً بسترةٍ حمراء ذات

قلنسوةٍ، وقد عُصبت عيناها، حجبًا لبشاعة جفنيها العليلين، ووقايةً لعينيها من نور الشمس، الذي كان يوجعها.

وفي طريق عودتها من المغارة، توقّفت برناديتّ فجأةً، فيما كان مرافقوها يدعونها إلى حثّ الخطى، تفاديًا لزحام الجماهير. فقد لمحت الفتاة المعصوبة العينين، واستدعتها، فجاء بها والدها، فقبّلتها مرّتين، قبّلت تلك التي اعتادت أَن ينبذها الجميع ويسخروا منها. وانطلقت من برناديتّ ومن الفتاة المسكينة ضحكةٌ مدوّيةٌ، معبّرةً عن فرحهما الغامر.

وما هي إلاّ ساعاتٌ معدوداتٌ، حتّى انجلى ليل الفتاة العليلة، وانتهت محنتها. فقد أَزاحت العصابة عن عينيها، وإذا بنور الشمس عذبٌ لا يؤذيها، وإذا بها تهتف منتصرةً: «إِنّني أَرى كلّ شيءٍ بوضوحٍ!».

واستشفّ القوم، في ذلك الشفاء، المعجزة التي طالما انتظروها. وسرعان ما ذاع النبأ. أَمّا الفتاة فهرعت إلى المغارة، واغتسلت بماء النبع، ثمّ راحت تجول في المدينة، وقد غمرت نفسَها سعادةُ بعثها إلى حياةٍ جديدةٍ.

وجيء بالفتاة إلى المدّعي العامّ، وإلى كاهن الرعيّة كي

يشهدا شفاءَها. ثمّ جيء بها إلى بيت آل سوبيروس، حيث تجدّد الازدحام وتفاقم.

وقد جرت أَحداثٌ مماثلةٌ كثيرةٌ، ثبتت صحّة بعضها وتبيّن زيف أُخرى. وأُجري، مع برناديتّ، تحقيقٌ رسميٌّ بهذا الشأن، فأَعلنت:

– «لا أَظنّ أَنّني كنت سببًا في شفاء أَيٍّ كان. ولم أَفعل شيئًا في هذا السبيل. أَمّا عن المغارة، فلست أَعلم هل سأعود إِليها».

غير أَنّ تقاطر الزائرين، وتزيين المغارة بالشموع كان متواترًا، ومتناميًا. وقد وضع أَحدهم تمثالاً من جبسٍ للعذراء، في مكان الظهورات، وما انفكّ القوم يستقون من ماء النبع، مع أَنّ أَحد صيادلة لورد، موالِيًا للسلطات، كان قد وصف ذلك الماء بالضارّ.

كلّ ذلك وفّر للمسؤولين الحكوميّين ذريعةً للملاحقة، بتهمة عبادةٍ غير مشروعةٍ، ومادّةً لتهجّم الصحافة الملحدة التي اتّهمت الجمهور بالجهل والحمق، ونعتت برناديتّ بالجنون.

٢٥ آذار ١٨٥٨: «أَنا الحبل بلا دنس»

تواترت الأَشفية التي كانت تحدث بواسطة مياه النبع الذي تفجّر في المغارة. غير أَنّ برناديتّ باتت تتفادى الفضوليّين الذين يطاردونها بأَسئلتهم، حتّى غدوا ينأون عنها، وهذا ما شرح صدور السلطات الحكوميّة، في حين استفاض الموقنون بأَنّ العذراء هي التي ظهرت لبرناديتّ، في نشر الأَقاويل المعبّرة عن أَحلامهم وتوقّعاتهم.

في هذه الأَثناء، ما انفكّت برناديتّ تشخص، بين فينةٍ وأُخرى، إِلى المغارة، كما يشخص عامّة المؤمنين، غير مدفوعةٍ بصوتٍ داخليٍّ، أَو بقوّةٍ لا سبيل إِلى مقاومتها.

وعشيّة الخامس والعشرين من آذار الذي تحتفل، فيه، الكنيسة بعيد البشارة الذي يذكّر بمثول الملاك جبرائيل، موفدًا من السماء، بين يدي عذراء الناصرة، كي يبشّرها باختيارها

أُمًّا للمخلّص، أَوت برناديتّ إلى فراشها باكرًا، ولكنّها استيقظت في عزّ الليل، وقد أَفعم صدرها فرحٌ غامضٌ عذبٌ، وشدّها إلى المغارة جاذبٌ آسرٌ. ودقّت حينئذٍ ساعة الكنيسة الواحدة، فأَدركت برناديتّ أَنّ الوقت ما زال باكرًا جدًّا، فاستأنفت نومها مطمئنّةً، كي تستيقظ، ثانيةً، في الرابعة. وفي الحال ارتدت ثيابها في العتمة، وقبعت تنتظر استيقاظ ذويها، الذين بادرتهم بقولها:

– «عليّ الشخوص إلى المغارة. فإن كنتم راغبين في مرافقتي، فعليكم أَن تستعجلوا».

واتّفقوا على الانطلاق معًا، في الخامسة، حين لا تزال عتمة الليل مخيّمةً، والطرقات خاويةً، فيتفادون الزحام. غير أَنّ كثيرين توقّعوا زيارتها إلى المغارة في ذلك اليوم، فسبقوها إليها. وآخرون شعروا بتحرّكها، رغم الوقت المبكّر، ففُتحت مئات الأَبواب، وازدحمت الأَزقّة بالراغبين في مواكبتها.

وكان قد سبقها، أَيضًا، إلى المغارة، مفوّض الشرطة المتيقّظ لكلّ شائعةٍ ونأمةٍ.

وكانت هناك، أَيضًا، بانتظارها، السيّدة ذات الثوب الأَبيض، وفيّةً لوعدها، تحيق بها هالة نورٍ تندّ عن الوصف، لا حدود لتألّقها، ولا نهاية لرقّتها. معها، كان المجد الأَبديّ يتجلّى بكلّ سناه وسلامه. وقد أَضاف حضورها إِلى فرح الظهورات السابقة، عذوبة اللقاء، عقب غيابٍ.

في تلك اللحظة المباركة، غدت تلاوة برناديتّ للمسبحة نورًا وشفافيّةً، بعد أَن طالما تلتها في ليالي السهاد، وساعات القهر والغمّ. وامتدّت عدوى فرحها إِلى الحضور لمّا شاهدوا محيّاها يكسوه الشحوب، وشفتيها تفترّان عن بسمةٍ من عالَمٍ آخر.

إِثر فراغها من تلاوة المسبحة، تقدّمت برناديتّ إِلى داخل المغارة، حيث أَلِفَت تلقّي أَسرار الزائرة السماويّة التي، عند حنيّة المغارة، باتت على قربٍ وثيقٍ منها، بل كادت تلامسها. فاطمأنّت الفتاة، وتجاسرت فطرحت على زائرتها السؤال الذي طالما تأهّبت لطرحه، وفقًا لما لُقّنت:

– «يا آنسة، هل تتكرّمين وتبوحين بهويّتك، إِن سمحتِ؟»

مع استعدادها الطويل، وتكرارها المطّرد لنصّ هذا السؤال، كانت برناديتّ مرتبكةً، فلم تحسن طرحه، مستبدلةً لفظةً بأُخرى. فابتسمت السيّدة، ولم تجب. وكرّرت برناديتّ السؤال بإلحاحٍ، كرّةً ثانيةً، فثالثةً. وفي كلّ مرَّةٍ، كانت «تلك» (أكيرو) تبتسم، ولا تجيب. غير أَنّ برناديتّ كانت عازمةً على ألاّ تعود إلاّ حاملةً الجواب المطلوب، بعد أن جعل منه كاهن الرعيّة شرطًا لبناء المزار.

ولكن، في المرّة الرابعة، كفّت السيّدة عن الضحك، وفكّت يديها المضمومتين، وبسطتهما نحو الأَرض، وكأَنّها تمطر كوكبنا ببركاتها، ثمّ رفعتهما، ورفعت ناظريها إِلى العلاء، في تعبير شكرٍ يستعصي على الوصف، وأَعلنت بلهجة لورد القريبة من الإِسبانيّة:

– «**أَنا الحبل بلا دنَس!**».

«Que soy era Immaculada Concepcion»

وفي الحال توارت السيّدة البيضاء، ولم تعد برناديتّ ترى أَمامها سوى صخرةٍ جرداء، وقريبًا منها كانت الساقية توسوس برقّةٍ.

لم تقل أُمّ اللّه: «أَنا مريم المنزّهة من الدنس». بل كان قولها يعني امتياز نزاهتها المطلقة من كلّ دنسٍ، والصبغة الجوهريّة لهذا الامتياز الذي انفردت به منذ بدء الخلق. وكأنّها كانت تقول: «أَنا الطهر»، «أَنا البتوليّة المتجسّدة، الحيّة»، «أَنا البياض الناصع المطلق». قد يتّسخ الشيء الأَبيض، أَمّا البياض المطلق، فيظلّ، أَبدًا، بياضًا، البياض جوهره، وليس صفةً له قد تكون عابرةً. إِنّها النموذج الأَسمى لبشريّةٍ لم يطَلْها تلوّثٌ، بشريّةٍ خرجت مباشرةً، وللتوّ، من يد اللّه، ولم تلطّخها أَيّة لوثةٍ موروثةٍ.

ضجّت برناديتّ فرحًا، لظفرها، أَخيرًا، بما طالما تمنّته. وبما أَنّها لم تكن قد سمعت، من قبلُ، عبارة «الحبل بلا دنَس»، التي لم تفهمها، وخشيت نسيانها، انطلقت تعدو إِلى مقرّ الرعيّة، وما إِن مثلت أَمام الكاهن حتّى هتفت، بلا مقدّماتٍ:

– «**أَنا الحبل بلا دنس**».

كاد الأَب يترنّح من شدّة الصدمة، ونشب، في نفسه،

صراعٌ بين نورٍ مبهرٍ تفجّر بغتةً، بين عقيدةٍ كان الحبر الأَعظم قد أَعلنها، لبضع سنواتٍ خلت، وصيغةٍ استهجنها. وقد عبّر عن حيرته، بقوله للفتاة:

– «لا يمكن أَن تحمل امرأةٌ مثل هذا الاسم. لا ريب أَنّك مخطئةٌ. وهل تدرين ما معنى هذا القول؟»

وهزّت برناديتّ رأسها، بما يعني النفي. فسألها الكاهن:

– «وكيف تقولينه، وأَنت لم تفهميه؟

– «لقد ردّدته، طول الطريق!»

ولكي تبدّد حيرة الكاهن، أَضافت:

– «هكذا قالت «تلك» (كيرو).

لام الكاهن نفسه لسورة الغضب التي استسلم لها، وكاد يبكي، فيما انتهزت برناديتّ فسحة الصمت الذي ساد، كي تؤكّد:

– «ما زالت السيّدة تطالب ببناء معبد».

وفي محاولةٍ لإِخفاء حيرته، قال لها الكاهن:

– «عودي إلى بيتك. سأراك في يومٍ آخر».

عادت برناديتّ، وهي تتساءل ما الذي أَثار غضب الكاهن، مع أَنّ الكلمات التي سمعتها من السيّدة بدت لها جميلةً جدًّا، وطافحةً بالفرح، وعندما فسَّر لها أَحد العارفين، في ذلك المساء، قول السيّدة، تأكّدت أَنّ العذراء هي التي كانت تظهر لها، وغمر الفرح كلّ كيانها، فيما كان كاهن الرعيّة يسطّر رسالةً إِلى أُسقفه كي يطلعه على ما جرى، ويضع بين يديه تساؤلاته اللاهوتيّة.

وكانت التساؤلات ما انفكّت تؤرّقه. فهذه الفتاة لم يكن بوسعها اختراع عبارةٍ تنطوي على كلّ ذلك العمق اللاهوتيّ، ولا تدرك معناها. ثمّ استعرض وجوه البيان التي كان قد تلقّنها وهو فتًى، في المدرسة، وذكر أَنّ أَحد أَساليب التأكيد هو تسمية الشيء، أَو الشخص، بالصفة التي يُراد تأكيدها، مثل القول: «إِنّه البياض ذاته»، لتأكيد شدّة بياضه. وأَوَليست العبارة التي تلفّظت بها الزائرة السماويّة تأكيدًا للعقيدة التي كان البابا قد أَعلنها قبل سنواتٍ معدوداتٍ، بقوله: «نحدّد

أَنّ العذراء القدّيسة، قد وُقيت من كلّ أَثرٍ للخطيئة الأَصليّة منذ لحظة الحبل بها الأولى».

فكر الأَب پيرامال كان ما برح مسرح اصطراعٍ، ولكنّ قلبه كان قد تحرّر من الشكّ.

في تلك الأَثناء، كان محافظ لورد قد أَنفذ إِلى وزير الأَديان، وهو، في الآن عينه، وزير التعليم، تقريرين، واصفًا ما يجري في المغارة، وطالبًا تزويده بالتعليمات التي يتوجّب العمل بها. وكان الوزير من فئة «الفلاسفة، المفكّرين»، المزهوّين بعظمتهم وحكمتهم، الرافضين لكلّ ما يفوق عقولهم، والمناوئين لفكرة الرؤى والمعجزات. ولذلك، وهو على مسافةٍ شاسعةٍ من مسرح الأَحداث التي لم يشهد منها شيئًا، ولم يحقّق في أَيٍّ منها، بتّ في الأَمر، بلا نقاشٍ ولا تمحيصٍ، مطالبًا المحافظ بوضع حدّ لتلك الظاهرة، وبمنع تحويل مغارةٍ، هي من أَملاك الدولة، إِلى مكان عبادةٍ، ناصحًا بالتعامل مع القضيّة، بدرايةٍ وحزمٍ، وبمنأًى عن العنف، وبالسعي إِلى الحؤول دون مثول الرائية برناديتّ إِلى

المغارة، وإلى تحويل اهتمام الناس عن الحدث، وإلى الحدّ من حجّهم إلى ذلك المكان، تدريجيًّا. وفي سبيل ذلك دعا المحافظ إلى التشاور مع الأُسقف، وإقناعه بأنّ ترك الأُمور تجري كما هي جاريةٌ، قد يفضي إلى إلحاق الضرر بالكنيسة وبالدين.

عملاً بتوصية الوزير كتب المحافظ إلى الأُسقف، داعيًا إيّاه إلى وضع حدٍّ لظاهرة المغارة، حرصًا على سلامة الدين، وعلى استمرار تناغمه مع العلم. ولم يكن الأُسقف ممّن تخفي الصيغة عن أَذهانهم مغزى الجوهر والقصد. فقد أَراد المحافظ أَن يكون حاذقًا، ولكنّ الأُسقف كان بصيرًا، واتّضح له أَنّ السلطات المدنيّة تتوخّى استخدامه أَداةً لتنفيذ مآربها. وهو كان يعي مسؤوليّاته، ويأبى أَن يكون للغير أَداةً. ولكنّه توقّع لجوء السلطات الحكوميّة إلى العنف، وهذا ما كان يخشاه، ويأباه. فكان عليه رفض ضغوط السلطات التنفيذيّة، مع تفادي استثارتها، وردّ مطالبها اللامشروعة، مع الحفاظ على العلاقات السلميّة معها.

ومثلما صمد الأُسقف في وجه الإلحاح الشعبيّ المطالب بإعلان صحّة المعجزات، صمد في وجه السلطات التي ابتغت وأد الظاهرة في مهدها، قبل التحقّق من صحّتها أو زيفها. كان حريصًا على ألاّ يُصدر حكمًا، قبل تمحيصٍ مستفيضٍ، وعلى حماية المستقبل من تدابير حكوميّةٍ قمعيّةٍ، مستعينًا على ذلك، بانتزاع كلّ الذرائع من يد السلطات. وبما أنّ المحافظ كان يفتقر إلى الحكمة والحيطة، فقد كان على الأُسقف أن يستزيد منهما.

كان الأُسقف بعيدًا عن مسرح الأحداث. وكلّ ما بلغه عنها كان تقارير كهنةٍ لم يكونوا هم أنفسهم شهود عيانٍ، ومن ثمّ كان من الصعب عليه تكوين فكرةٍ واضحةٍ تفضي إلى قرارٍ سليم. لم يكن بوسعه منع برناديتّ من المثول إلى مكان الظهورات عندما يحدوها إليه دافعٌ لا سبيل إلى مقاومته، فمثل هذا المنع تجنٍّ على حرّيّة النفوس، المقدّسة. ولكنّه، في الآن عينه، كان راغبًا في تفادي الصدام مع السلطات المدنيّة. فنصح كاهن رعيّة لورد بالإيعاز إلى الرائية أن تحدّ من زياراتها إلى المغارة، ما لم تدفعْها إلى ذلك قوّةٌ سماويّةٌ.

وقد أَدّى احتدام الخلاف الناشب بين الأُسقف والمحافظ إلى اتّخاذ هذا الأَخير موقفًا من الظهورات أَشدّ تصلّبًا. فأَخضع برناديتّ إلى امتحان تنويمٍ مغناطيسيٍّ، قد يسفر عن كذبها. غير أَنّ الامتحان فشل في التأثير على طبعها الهادئ، وعلى صراحتها المطلقة.

وشهد عيد الفصح، في تلك السنة، تحوّلاتٍ جوهريّةً، في نفوس الكثيرين من أَهالي لورد الذين أَعادتهم ظهورات العذراء وعجائبها إلى دروب الاستقامة والفضيلة. ولم تكن عجائب الأَشفية محصورةً في لورد، بل كان ماء نبع المغارة يشفي الأَمراض في كلّ مكانٍ يؤتى به إليه.

حلول الربيع كان بشيرًا بربيع نِعَمٍ، وخوارق، وارتداداتٍ روحيّةٍ، وكان القوم يرقبون كلّ حركةٍ من تحرّكات برناديتّ، فيكفي أَن يقول أَحدهم إنّها ميمّمةٌ إلى المغارة حتّى يتقاطر المئات إليها.

في هذه الأَثناء، ما انفكّ مفوّض الشرطة يراقب المغارة عن كَثَبٍ، وقد دوّن رجاله، يوم أَحد الفصح، الواقع في ٤

نيسان، حضور ٣٦٢٥ حاجًّا، منهم ٨٠٥ غرباء، ويوم الإثنين التالي وفود ٥٤٤٥ حاجًّا، منهم ٣٤٣٣ غريبًا. وكلّ زائرٍ أو حاجٍّ كان راغبًا في مشاهدة برناديتّ ومعرفة موعد الظهور التالي. فحوصر بيت ذويها، الذين وجدوا، أخيرًا، مفترجًا، بقبولهم دعوة عمدة بلدة «آدي» (Ade) السابق، الذي شفيت كتفه، بعد غسلها بماء نبع المغارة الصقيعيّ.

ظهور الثلاثاء: ٦ نيسان ١٨٥٨

عشيّة يوم الثلاثاء، السادس من نيسان، شدّ برناديتّ إلى المغارة، جاذبٌ سرّيٌّ، فعادت، في سيّارة مضيفها، العمدة السابق، في الساعة الرابعة فجرًا، ووصلت إلى المغارة في الخامسة، وإذ بمئاتٍ من المصلّين قد سبقوها إليها.

شرعت بتلاوة المسبحة، بهدوءٍ وخشوعٍ، وعيناها شاخصتان إلى الأمام. وكان العمدة قد أهداها شمعةً كبيرةً، أثقل من أن تقوى على حملها طويلاً، فغرستها في التراب، وسندتها بيدها.

وما لبث أن علا ضجيجٌ يرافقه صيحات استنكارٍ، عندما قدم رجلٌ يدفع بالمناكب، مبعدًا الجالسين بقرب برناديتّ، ومحتلاً مكانهم، وهو ما زال معتمرًا قبّعته، إزراءً بحرمة المكان. وعندما اشتدّت لهجة الاحتجاج، واجهها بقوله:

– «لم آتِكم عدوًّا، بل جئت باسم العلم. قدمتُ جريًا، وها إنّي أتدفّق عرقًا، (ورفع قبّعته مدى لحظةٍ كي يشهد الناس جمجمته الجرداء التي كانت ترشح عرقًا) وأضاف: «أخشى التعرّض لتيّار هواءٍ مؤذٍ. إنّي الوحيد القادر على دراسة الحدَث الدينيّ الذي يجري هنا. فدعوني أهتمّ ببحثي!».

كان المتكلّم هو الدكتور «دوزو»، وقد أسهم خطابه في تهدئة الخواطر المثارة. وعندما شرعت برناديتّ بتلاوة البيت الثاني من المسبحة، ابتسمت، وتجلّى محيّاها، فأدرك المقيمون إلى جوارها أنّ العذراء قد حضرت. وانحنى كثيرون خُشَّعًا.

ولاحظ الدكتور «دوزو» أنّ برناديتّ تابعت تلاوة المسبحة، تلاوةً غير منتظمةٍ، إذ كانت تتوقّف بين حينٍ وآخر، وتضحك سرورًا، وتحيّي، وقد تتدحرج دمعةٌ على وجنتها. وأنهت تلاوة المسبحة، وهي ما برحت مستغرقةً في انخطافها، والقوم سعداء بمشاهدتها على هذه الحال.

وبغتةً تعالت هتافات دهشةٍ وتعجُّبٍ، عندما أَعادت برناديتّ مسبحتها إِلى جيبها، وضمّت يديها فوق شعلة الشمعة المغروسة أَمامها. وكان اللهب يمرّ بين فرجات أَصابعها، ويتعالى، متراقصًا مع هبوب النسيم. وفي هذه الأَثناء، ظلّت برناديتّ مستغرقةً في تأمّل البهاء السماويّ، جامدةً في موقفها، تحت أَنظار الجمع المذهول، الذي كان يتزاحم لمشاهدة المنظر العجيب، والذي عاينه عددٌ من كبار المسؤولين، فضلاً عن الدكتور «دوزو» الذي كان يراقبها عن كثبٍ، وساعته في يده، فتبيّن أَنّ الحدث دام أَكثر من ربع ساعة.

وبغتةً، ارتعشت الفتاة، وتبدّلت ملامح وجهها، مستعيدةً وضعها المألوف، فقد انتهت الرؤيا. وحرص الدكتور «دوزو» على فحص أَصابعها، بدقّةٍ، فلم يعثر على أَيّ أَثرٍ لحرقٍ، أَو لأَيّة إِصابةٍ. فقد احترم اللهبُ يدَ الفتاة المستغرقة في تأمّل جمال الأُمّ السماويّة. وتصاعدت هتافات التسبيح من حناجر الجمهور. غير أَنّ أَحد الحاضرين أَراد التثبّت، فأَخذ الشمعة، وهي ما زالت مشتعلةً، وأَدناها من يد برناديتّ، وهي في غفلةٍ عنه، فانتفضت، وصاحت في وجهه:

– «حذارِ! إنّك تحرقني يا سيّد!».

يومها، ومع أنّ مجيء برناديتّ إلى المغارة لم يكن متوقّعًا، بلغ عدد الحجّاج المتراصّين أمام المغارة بضعة آلافٍ، وقد تقاطروا من كلّ صوبٍ.

وفي ذلك اليوم، عاد الدكتور «دوزو» رجلاً آخر. لأيّامٍ معدوداتٍ خلت، كان قد أعلن في «المقهى الفرنسيّ» معقل «المفكّرين»، أنّ ظهورات لورد إن هي إلاّ مهزلة، ونعت برناديتّ بالمهرّجة. وها هو، الآن، ينشر نبأ المعجزة التي كان عليها شاهدًا، بحماسٍ لاهبٍ، ونبرة اندفاعٍ متّقدةٍ، غير عابئٍ باتّهام بعض رجال الدين إيّاه بالمغالاة، ولا بتهديدات مفوّض الشرطة. وسرعان ما ملأت أحاديثه عن المعجزة، المدينة كلّها.

وكان عمّال المناجم، وعمّال البناء، قد تطوّعوا لحفر طريقٍ واسعٍ، يمكّن من وصول الجموع إلى المغارة. كانوا يقدمون مع هبوط الليل، وبعد نهار عناءٍ شاقٍّ، وكأنّهم يروّحون عن أنفسهم بالعمل الطوعيّ من أجل ملكة السماء. وقبل إيابهم

إلى بيوتهم، كانوا يلتئمون في المغارة، ويرفعون للعذراء صلاةً جماعيّةً.

وسرعان ما ازدانت المغارة بالمزاهر، وتماثيل العذراء، والتقادم، الثمينة أحيانًا، والغالية، دائمًا، على أصحابها، والتي كانوا يقدّمونها بسخاءٍ، تعبيرًا عن شكرهم للعذراء. وشرع القوم يتبرّعون بالمال من أجل بناء المعبد الذي طالبت به الزائرة السماويّة. كانوا يلقون المبالغ، كلٌّ وسعَ طاقته، ويمضون، ولم يكن أحدٌ يمدّ إلى تلك الأموال يدًا.

وما انفكّت وفودٌ تضمّ كلّ فئات المجتمع وطبقاته ومشاربه تؤمّ منزل آل سوبيروس الوضيع، مستعلمةً، مستوضحةً. وكانت برناديتّ تُدهش الجميع ببساطتها وصدقها، وشفافيّتها. كانت تتخطّى ذاتها كلّما تعلّق الأمر بظهورات العذراء. لا يربكها أيّ اعتراضٍ، ولا تؤخذ بأيّ فخٍّ.

وقد سُئلت، يومًا:

– «ماذا تفعلين لو منعك كاهن الرعيّة، منعًا قاطعًا، من الحضور إلى المغارة؟

– سأُطيعه.

– وإن طلبت منك سيّدة الظهور، في الآن عينه، أن تشخصي إلى المغارة، فما سيكون موقفك بين الأمرين؟

– سأَلتمس إذن كاهن الرعيّة بإطاعة سيّدة السماء!

خارج مضمار الظهورات، كانت برناديتّ فتاةً عاديّةً، بريئةً، بسيطةً، محدودة الطاقات العقليّة. كانت نفسها كلّها مأخوذةً بأُمور السماء، فلا تتعلّم من علوم الأَرض سوى القليل. وكانت تحبّ مشاركة أَترابها لهوهم وألعابهم. وعندما كان يؤمّ مدرسة الراهبات غرباء راغبين في تعرّفها، كانت راهبةٌ تشير إليها، فيرى الغرباء، وسط الفتيات العابثات، فتاةً هزيلةً، مرتديةً أَسمالاً زريّةً.

لقد حرصت العذراء التي اختارتها على وقاية بساطتها، وبراءتها، وطفولة قلبها. وعرضت أُسرةٌ أَجنبيّةٌ شديدة الثراء تبنّي برناديتّ لقاء مبالغ طائلةٍ، تدفع لذويها، مع إمكانيّةٍ مفسوحةٍ لهم، بالمكوث معها. ولكنّ ذويها، آثروا الفقر.

صراعٌ بين السلطات والمؤمنين

فيما التزمت السلطات الكنسيّة جانب الحيطة والتريّث، كانت السلطات المدنيّة جاهدةً في القضاء على «الخرافة»، وعلى إطفاء كلّ شعلةٍ تقتبس نارها من السماء.

وبعد أن فشلت جميع الشراك المنصوبة، وجميع الحِيَل والإغراءات، وبعد أن أخفق المدّعي العامّ في العثور على بندٍ قانونيٍّ يسوّغ سجن برناديتّ، خطر للمحافظ أن يحقّق هذا الهدف، عن طريق التدابير الإداريّة التي تتيح احتجاز من يُثبت طبيبان إصابته باختلالٍ عقليٍّ، وإيداعه في مصحّةٍ نفسيّةٍ، محرومًا من حقّ الاعتراض. ولا مراء أنّ هذا التدبير الأحمق يفسح المجال لكلّ التجاوزات، ولا سيّما عندما نذكر أنّ أشخاصًا هم مفخرة الجنس البشريّ، أمثال سقراط، ونيوتن، والقدّيسة تيريز، وباسكال، اتُّهموا بالاختلال العقليّ.

ولّما بلغت إلى مسامع المحافظ أَنّ العذراء ظهرت، مجدّدًا، لبرناديتّ، أَوفد إلى منزل آل سوبيروس طبيبين من مشايعيه، ومن المتصلّبين في إنكارهم المبدئيّ لكلّ ما يفوق الطبيعة. وكان قد أَقلقهما إشعاع برناديتّ في أَثناء الظهورات، وانبجاس النبع من المغارة، والأَشفية المدهشة التي كانت تتمّ بفضل استخدام مائه.

جسّ الطبيبان رأس الفتاة، فلم يعثرا فيه على أَيّ نتوءٍ غير طبيعيّ، وجاءت أَجوبتها على أَسئلتهما خاليةً من الغرابة والتناقضات، تنمّ عن منطقٍ سليمٍ، وفهمٍ معقولٍ. واتّضح أَنّ جهازها العصبيّ سليمٌ، وأَنّها تتمتّع بتوازنٍ وهدوءٍ لا غبار عليهما. كان الربو يتعبها، أَحيانًا، ولكن ليس لهذه العلّة تأثيرٌ على الدماغ. ولم يكن بوسع الطبيبين سوى الإقرار بسلامة الفتاة العقليّة. ولكنّها ظلّت متمسّكةً بروايتها عن الظهورات، فاستنتجا، من ذلك، إصابتها بالهلوسة. واكتفى المحافظ بهذا الاستنتاج كي يأمر باحتجازها، تمهيدًا لإيداعها في مصحّةٍ عقليّةٍ. وإذ لم يكن هذا التدبير كافيًا للقضاء على ظاهرة لورد، سعى المحافظ إلى ردع المؤمنين عن أَمّ المغارة، معتبرًا

تحويلها إلى مكان عبادةٍ لا شرعيٍّ، وأمر بتجريدها من كلّ ما زُيّنت به، متمنّيًا أن يلقى مقاومةً كي يقمعها بالقوّة.

واستشار المحافظ عُمَد لورد وجوارها، فحذّره بعضهم من التعرّض للمظاهر الدينيّة، مبيّنين له أنّ إيمان الشعب هو الذي يساعده، غالبًا، على احتمال الفقر، ومظالم الحكومات، فليس من الحكمة التصدّي له. ولكن، لم يكن هذا هو رأي المحافظ، ولم تكن تلك هي نوازعه، وحاول إقناع موظّفيه بأنّه إنّما يعمل لمصلحة الكنيسة والإمبراطوريّة، معًا. ولذلك أمر بمصادرة كلّ ما زُيّنت به المغارة، وباحتجاز جميع من يروّجون خرافات الظهورات، وبإخضاعهم للعلاج على نفقة المحافظ. كان ذلك في الرابع من أيّار، وكانت تلك مساهمته في الاحتفال بالشهر المريميّ!

وقع عمدة لورد في حيرةٍ ممزّقةٍ، وخشي عواقب التدابير القمعيّة. واستشاط كاهن الرعيّة غيظًا، هاتفًا أنّ الفتاة بريئةٌ بدليل أنّ القضاة لم يجدوا أيّ ممسكٍ قانونيٍّ يدينها، وأنّ توقيفها بادّعاء اختلال عقلها، وبحجّة معالجتها، يزيد من

بشاعة جريمةٍ تتّخذ من ادّعاء الجنون قناعًا لتمويه اللاشرعيّة، ولا سيّما أنّ جميع الذين استجوبوا برناديتّ قد أكّدوا اتّزانها، وصدقها، وشفافيّتها. وأكّد لكلٍّ من المدّعي العامّ والعمدة أنّ كلّ من يبتغي مسّ شعرةٍ من تلك الفتاة البريئة العزلاء، عليه الدوس على جثّته، قبل أن ينفّذ عزمه، فهو الراعي المكلّف بالذود عن حياض رعيّته. وأكّد، أيضًا، احترام رعيّته للسلطات المدنيّة، ولكن إن عمدت هذه إلى أساليب العنف، فالأمر سيخرج من يده.

حيال موقف الأب بيرامال هذا، اضطُرّ العمدة إلى إبلاغ المحافظ استنكافه عن تنفيذ أمر احتجاز برناديتّ، خشية إضرام ثورةٍ عارمةٍ، ولو أدّى رفضه التنفيذ إلى إقالته من منصبه.

أمّا تجريد المغارة من زينتها الذي كان مفوّض الشرطة عازمًا على تنفيذه، فقد رأى فيه أهالي لورد تدنيسًا فظيعًا، ونكرانًا لجميل العذراء التي تنازلت وباركت مدينتهم. كانت الثورة تجيش في النفوس. ولكنّ كاهن الرعيّة ومعاونيه دعوا الرعيّة

إلى الهدوء، مؤكّدين أنّه، إن كان ذلك العمل إهانةً للعذراء، فهي ستجد الوسيلة لتحويل الأُمور إلى تمجيدها.

وكان نقل موجودات المغارة يستلزم عربةً. وطلب مفوّض الشرطة استعارة عربة البريد، فأجابه مدير البريد أنّ عرباته ليست موضوعةً في خدمة مهمّاتٍ قذرةٍ. وهكذا أجابه جميع أصحاب العربات، حتّى الخاصّة منها. ولطالما سمع شتائم أبناء المدينة، وهم يرونه يتنقّل من بيتٍ إلى بيتٍ، متوسّلاً الحصول على عربةٍ، مضاعفًا، باطّرادٍ، المبالغ التي يعرضها لهذا الغرض، رغم فقر بعض أصحاب العربات. وهكذا، حتّى وافقت، أخيرًا ابنة بيطارٍ أغراها المبلغ المعروض، على إعارته عربةً.

الجند المرافقون للمفوّض كانوا يتألّمون لاضطرارهم إلى حمل تقادم المغارة إلى العربة، ويشعرون بفداحة التدنيس الذي يساهمون فيه.

بعد أن جرّد المفوّض المغارة، استعار فأسًا، ودمّر بها الدرابزين الخشبيّ الذي أقامه العمّال عند مدخل المغارة. وقد

استنكر الحاضرون هذا العمل أفظع استنكارٍ، ولكنّ المفوّض التفت نحوهم وقال، وقد ارتسمت على وجهه مخايل حزنٍ مصطنعٍ:

– «يؤسفني فعل ما أُمرتُ بفعله، من قِبل المحافظ، ولا حيلة لي سوى إطاعة أوامره».

وامتثالاً لطلب كهنة الرعيّة، اعتصم الشعب بالهدوء. ولكنّهم عبّروا عن استنكارهم بحضورهم الكثيف إلى المغارة، في ذلك المساء، وقد حمل كلٌّ منهم شمعةً، ثمّ عاد بها إلى بيته، لكيلا يفسح للشرطة ذريعة مصادرتها.

في الغداة جرى حادثان كان لهما أبلغ أثرٍ على النفوس. فابنة البيطار التي ارتضت إعارة عربةٍ للمفوّض، سقطت من سطح مستودع تبنٍ، فكُسرت ضلعٌ من أضلاعها. وأمّا الرجل الذي أعار المفوّض فأسًا لتحطيم درابزين المغارة، فقد هبط لوحٌ خشبيٌّ ثقيلٌ على قدميه فسحقهما.

جميع الظروف التي تجمّعت وبرزت عقب اعتزام المحافظ اتّخاذ تدابير قمعيّة، أقنعته بأنّ الإقدام على احتجاز برناديتّ

اعتباطًا قد يكون له عواقب وبيلةٌ، وقد تؤدّي الاحتجاجات الصادرة عن الصحافة الكاثوليكيّة، والصحافة المحايدة، والشكاوى التي قد تُرفَع إلى مجلس الدولة إلى إفقاده وظيفةً كان حريصًا عليها كلّ الحرص. وقد شقّ على كبريائه التراجع عن قرارٍ معلنٍ. وكان تراجعه هذا اعترافًا ضمنيًّا برجاحة عقل برناديتّ وبمصداقيّتها، وإقرارًا باستحالة القضاء على الحقيقة.

اضطُرّ، إذن، إلى تغيير أُسلوب هجومه، ولكنّه لم يغيّر أَهدافه، وأَهدافه كانت الإطاحة بكلّ ما هو فائق الطبيعة.

في تلك الأَثناء، كان نبع لورد قد أَمسى واقعًا راهنًا، وأَضحت الأَشفية التي تتمّ بفضل مياهه حقيقةً لا سبيل إلى إنكارها. فلم يجد المحافظ من وسيلةٍ سوى إجراء تحليلٍ لمياه ذلك النبع، أملاً في إظهار احتوائها عناصر كيميائيّةً كفيلةً بتفسير الأَشفية المتكاثرة، ولعلّه، بذلك، يطيح بكلّ تفسيرٍ علويٍّ، فائق الطبيعة. وقد أَظهر التحليل أَنّ مياه النبع صافيةٌ، خاليةٌ من الشوائب، سهلة الهضم. وأَضاف المحلّل، إرضاءً للمحافظ، ومصانعةً له، أَنّ العلم لن يلبث أَن يكتشف فيها

عوامل شفائيّةً خاصّةً، تضعها في مصافّ المياه المعدنيّة التي تمثّل ثروة المنطقة. ولكن، يبدو أنّ المحافظ أغفل الإيعاز إلى محرّري جريدة المحافظة «العهد الإمبراطوريّ» أن يؤيّدوا استنتاجات المحلّل، فوصفت هذه الجريدة مياه نبع لورد بالقذرة، وقالت متهكّمةً، في عددها الصادر في السادس من أيّار:

«يبدو أنّ المغارة الذائعة الصيت تفيض أمواجًا من المعجزات التي أغرقت منطقتنا. فمن كلّ صوبٍ تصادفون أقوامًا يروون قصص آلاف الأشفية التي تحقّقت بفضل هذا الماء القذر، بحيث لن يبقى للأطبّاء عملٌ، في القريب العاجل، وستختفي أمراض الأعصاب، والصدر من ديارنا...»

ومع عودة الربيع، ازدهرت حركة الحجّ إلى لورد. أمّا المحافظ، الذي طالما ناضل، مستخدمًا المشروع واللامشروع من الوسائل، في سبيل القضاء على الظاهرة، فقد شقّ عليه أن يشهد وفودَ المسيحيّين تتدفّق من كلّ أرجاء فرنسا، والدول المجاورة، كي تصلّي في المغارة، وتنهل من ماء نبعها، وتغتسل

به. غير أَنّ ما حيّره وأَحبطه، هو أَنّ كلّ هذا الازدحام لم يولّد أيّة فوضى، ولم يعكّر من صفو النظام في شيءٍ. هذا الوضع الذي بدا غير مألوفٍ، أَقلق السلطة المدنيّة التي يمثّل ضبط النظام مبرّر وجودها. فقد كان النظام منضبطًا، من غير حاجةٍ إلى تدخّلهم.

وما لبثت المغارة أَن امتلأت، مجدّدًا، بالتقادم والزينة من شموعٍ وباقات زهورٍ، وصورٍ تقويّةٍ، وتماثيل، حتّى من تبرّعاتٍ ماليّةٍ من أَجل بناء الكنيسة، تلبيةً لطلب العذراء، تحدّيًا لمفوّض الشرطة الذي كان دائبًا على انتزاع كلّ ذلك ومصادرته، وسلبه، أَو إتلافه. ومع ذلك استمرَّت الجموع ماضيةً قدمًا في تكريمها للعذراء، وفي سخائها، صابرةً، متدفّقةً ثقةً ورجاءً.

وفي إحدى الليالي الدامسة الظلام، امتدّت أَيادٍ أَثيمةٌ وانتزعت تمديدات النبع، وتركت المياه تتيه تحت ركامٍ من الحجارة والرمال التي أُلقيت على أَرض المغارة. وما إن تبيّن فعل التدنيس هذا للشعب، في الصباح، حتّى جاشت

النفوس بالاستنكار والغضب. وتوقّعت السلطات تفجّر أَعمال العنف، فاستنفرت الشرطة والجيش، لقمع كلّ مظهر شغبٍ. ولكنّ الشعب لم يحوّل غضبه أَفعالاً عنيفةً. وسارع عمدة المدينة، بإيعازٍ من المحافظ، إِلى إِعادة تمديدات النبع إِلى وضعها السابق، وإِلى تحرير الساقية التي كان يصبّ فيها النبع مياهه، من كلّ ما رُمي فيها بغيةَ سدّ مجراها، وذلك سعيًا إِلى إِبعاد شبهة افتعال التخريب عن السلطات.

أُسقط في يد المحافظ، عقب فشل كلّ تدابيره القمعيّة والاستفزازيّة في تعكير النظام والهدوء، ولا سيّما بعد أَن تكاثرت الأَشفية العجيبة، وبعد أَن أَثبتت تحاليل أَجراها خبراء مشهودٌ لهم بالكفاءة والعلم، خطل استنتاجات المحلّل الذي انتدبه المحافظ، وأَثبتوا أَنّ ماء النبع لورد ماءٌ عاديٌّ لا يحتوي، في ذاته، أَيّة خواصّ شفائيّةٍ استثنائيّةٍ.

في الثالث من حزيران احتفلت برناديتّ بمناولتها الأُولى، ولا ريب أَنّ الربّ وجد، في نفسها، نبعًا صافيًا، منزّهًا من كلّ شائبةٍ. وغداة مناولتها الأُولى سُئلت:

– ما الذي أَسعدك أَكثر: المناولة الأولى، أَم الظهورات؟

– إِنّهما أَمران يسيران جنبًا إِلى جنب. ولكن لا يمكن مقارنة أَحدهما بالآخر. وقد سعدتُ في الحالتين.

وما انفكّ القوم يقصدون برناديتّ مستوضحين. غير أَنّها لم تتخلَّ، يومًا، عن بساطتها، وبراءتها، وإِيمانها. وذات يومٍ، عرضت عليها امرأةٌ ثريّةٌ مقايضة مسبحتها المصنوعة من حجارةٍ كريمةٍ نفيسةٍ، بمسبحتها البسيطة. ولكنّ الفتاة أَجابتها:

– «يا سيّدتي، احتفظي بمسبحتك الثمينة، فأنا أوثر الاحتفاظ بمسبحتي الفقيرة، فهي أَكثر تناسبًا مع فقري!»

وحاول كاهنٌ نفحها مالاً فرفضت. وأَعاد المحاولة مَثْنَى وثلاثًا، وفي كلّ مرَّةٍ كان جوابها الرفض القاطع. أَخيرًا قال لها: إِن شئت أَلاّ تحتفظي بهذا المال لنفسك، فتحسَّني به على الفقراء. فأَجابته:

– «تحسَّن أَنت به، عن نيّتي. وسيكون ذلك أَفضل من أَن أُقدّمه بنفسي»، مع أَنّ ذوي برناديتّ كانوا، غالبًا، يفتقرون إِلى الخبز اليوميّ.

وهناك رواياتٌ عديدةٌ عن موقف برناديتّ من المال والهدايا.

فقد اتفقّ، يومًا، أَنّ زائرين أَثرياء كلّفوا أَخاها الصغير بجلب ماءٍ من نبع المغارة لهم، ونفحوه، لقاء هذه الخدمة، قطعة نقدٍ ذهبيّةً، عاد بها إِلى البيت، فخورًا وسعيدًا بغنيمته. غير أَنّ برناديتّ صفعته صفعةً مدوّيةً، وأَجبرته على إِعادة الهبة الثمينة.

وفي مدرسة الراهبات التي مكثت فيها برناديتّ، لحظ الجميع مقتها للمال. بادئ الأَمر، كانت تقذف أَرضًا كلّ ما تُعطاه. ولكنّها، بعدئذٍ، غدت تقول لمن يحاول إِعطاءها شيئًا: «هناك صندوقٌ لأَعمال الخير». وما كان يُدسّ في يدها، إِكراهًا، سرعان ما كان ينتقل إِلى يد رئيسة المدرسة. وما كان يُجاد به عليها من هدايا كان يتحوّل إِلى زميلاتها.

وقد حطّ، يومًا، أُسقف مونبيليه الرحال في لورد، وطلب مقابلتها، وسارع كاهنٌ إِلى إِحضارها. ومنذ الوهلة الأولى، تأثّر الأُسقف بفقرها وببساطتها. وعبثًا حاول تقديم مساعدةٍ

ماليّةٍ لها. لا بل إنّها رفضت مقايضة مسبحتها الزريّة بمسبحة الأُسقف المصنوعة من المرجان المرصّع بالذهب، والتي كان البابا بيّوس التاسع قد باركها.

لم تُجدِ، إذن، كلّ وسائل الإقناع والردع نفعًا في الحؤول دون استمرار الحجّ الشعبيّ الذي انتظم تلقائيًّا وعُبّر عنه بالصلوات، وإيقاد الشموع، والتطوافات. وقد عكف المهنيّون، كلٌّ في مضمار اختصاصه، على تزويق المغارة وتزيينها، وشقّ الطرقات إليها وتعبيدها، ممّا أثار دهشة المسؤولين. فقد عهدوا، في أهل لورد، حرصهم على الكسب، وكَلَفهم بالمال، فإذ بهم يتبارون في بذل مالهم وجهدهم، بلا حسابٍ، وفي إقبالٍ على العطاء غير مسبوقٍ.

وكانت أكثر التقادم سخاءً، تلك التي جاد بها أشدّ القوم فقرًا، الذين لم يبخلوا بأعزّ وأثمن ما يملكون: مدّخراتهم، وخواتم زواجهم، وموروثاتهم الغالية. وقد تبرّعت امرأةٌ فقيرةٌ بقطعةٍ ذهبيّةٍ كانت تمثّل كلّ مدّخراتها تحسُّبًا للأيّام السوداء.

في تلك الفترة، كافأ وزير الأديان كلاًّ من المحافظ ومفوّض

الشرطة، وعبّر عن إعجابه بموقفهما الحازم، وحرَّضهما على الاستزادة من التدابير الصارمة الكفيلة بالقضاء على مغارة لورد وعجائبها.

غير أنّ عمل اللّٰه كان يواصل مسيرته بتؤَدَةٍ وثباتٍ، مطيحًا، شيئًا فشيئًا، بمساعي المناوئين، وبتخرّصات أَدعياء العلم.

إغلاق المغارة

أخيرًا ومضت في ذهن المحافظ فكرةٌ عبقريّةٌ: بما أنّ المغارة قائمةٌ على أرضٍ تمتلكها البلديّة، فمن حقّ العمدة منع الدخول إليها، مثلما يحقّ لكلّ مالك أرضٍ منع من يشاء من دخولها. وأوعز إلى العمدة بإعلان قرارٍ بهذا المعنى، حظّر به الدخول إلى منطقة المغارة، والاستقاء من مائها.

ووُضعت الحواجز للحؤول دون الوصول إلى المغارة، وعُيِّن حرّاسٌ للوشاية بكلّ من يتخطّى الأمر، ولتنظيم مخالفاتٍ بحقّه.

وكان، هناك، قاضٍ أشدّ تصلّبًا من الوزير والمحافظ ومفوّض الشرطة في مناوأة «الخرافة»، وكلّ ما يفوق الطبيعة. وإذ لم يكن بوسعه تغريم المخالفين إلاّ بالحدّ الأدنى الذي لا يتجاوز خمسة فرنكاتٍ، فقد أرشدته عبقريّته إلى إدانةٍ جماعيّةٍ

تشمل جميع المخالفين في يومٍ واحدٍ، بالتكافل والتضامن فيما بينهم. فإذا ارتقى عدد المخالفين إلى مئةٍ أو مئتين، ارتفعت قيمة الغرامة إلى خمس مئة إو إلى ألف فرنك، يخضع كلّ مخالفٍ إلى دفعها كاملةً.

حيال هذ العداء السافر، وهذه الاضطهادات المجحفة، التزم الأُسقف الصمت، وظلّ كهنته، امتثالاً لأوامره، بعيدين عمّا يجري في المغارة. هذا الموقف أثار استهجان المؤمنين، لا بل سخطهم، فاتّهموا السلطات الكنسيّة باللامبالاة، بل بالضعف والجبن والاستسلام، لا سيّما أنّ المحافظ كان لا يني يشيع، ويعلن في وسائل إعلامه، أنّ كلّ تدابيره كان يقوم بها بالتوافق مع الأُسقف.

وفي الواقع، لم يكن الأُسقف محيطًا إحاطةً مباشرةً كافيةً بما يجري في لورد، ولم يتكوَّن لديه أيّ يقينٍ بهذا الشأن. ومن ثمّ كان يخشى أن يقحم أُمّ الله في أُمورٍ قد لا تكون سوى نتاج أوهام فتاةٍ جاهلةٍ، واندفاعٍ شعبيٍّ غير واعٍ. ولذلك أحجم حتّى عن تأليف لجنة تحقيقٍ، وآثر الاعتصام بالتريّث.

وشاء اللّه أَن تؤكّد ظاهرة لورد ذاتها وصفاء جوهرها، عبر بوتقة المقاومة والاضطهاد، فتكتسب، بذلك، منعةً وديمومةً.

وغالبًا ما قابل تحفّظ الأُسقف اندفاع الجماهير، التي بهرتها معجزات السماء. فغدا كثيرون يتحدّون الأَوامر والحواجز، ويتخطّونها، بعد أَن يصرّحوا للحرّاس بأَسمائهم، غير حافلين بالغرامات. وكان بعض الحرّاس أَنفسهم، قبل مباشرتهم مهامّهم القسريّة التي كانوا يمقتونها، يركعون ويتضرّعون لأُمّ اللّه، معتذرين عن قيامهم بما تُكرههم عليه الحاجة إِلى تأمين خبز أُسرتهم.

وآخرون ممّن لا طاقة لهم على دفع الغرامات، كانوا يتسلّلون، ليلاً، إِلى المغارة، أَو يأتونها بمرضاهم، ويكلّفون أَصدقاء لهم بالمراقبة، كي يبعثوا لهم بإِشارة تحذيرٍ، حالما يظهر رجال أَمنٍ في المكان. وكان بعضهم يجتازون النهر سباحةً، كي يصلوا، خلسةً، إِلى المغارة المباركة.

ضعفت سلطة الإِكليرُس لدى أَفراد الشعب، وكانت دعوة

الكهنة إلى احترام أَوامر السلطات تلقى، غالبًا، الجواب التالي: «لا يجوز أَن نحترم إلاّ ما هو جديرٌ بالاحترام».

وأَضحت التدابير المتّخَذة بحجّة حفظ النظام هي الخطر الأَكبر على النظام. وغالبًا ما حُطِّمت، ليلاً، الحواجز المقامة لمنع الوصول إلى المغارة، وأُلقيت في النهر، فالحواجز التي أُقيمت في ١٥ حزيران دُمِّرت ليلة ١٧ حزيران، وقام بتدميرها العمّال الذين سُخِّروا لإقامتها، أَنفسهم. وأُعيدت إقامتها في ١٨ حزيران، ولكنّها أُزيلت ليلة السابع والعشرين، وأُعيدت في اليوم التالي، ولكنّها أُزيلت، أَيضًا، في الرابع من تمّوز، وهكذا دواليك.... وأَعلنت السلطات عزمها على عدم الاكتفاء بالغرامات، وعلى سجن المخالفين، أَملاً في إرهاب المؤمنين.

وكان الذين يتعذّر عليهم الوصول إلى المغارة، يحتشدون على ضفّة النهر اليمنى المقابلة للمغارة، وهي أَرضٌ تخصّ أَفرادًا ارتضوا أَن يستخدمها الحجّاج والمصلّون، استجلابًا لبركة الله.

في هذه الأَثناء اشتدّت نوبات الربو على برناديتّ، وأَنهكها سيل الزائرين والفضوليّين النهمين إِلى سماع روايتها عن الظهورات. فنصح الأُسقف والديها بإِرسالها إِلى منطقةٍ مجاورةٍ مشهورةٍ بمياهها المعدنيّة، التماسًا للنقاهة والراحة، لعلّ غيابها يحدّ من تدفّق الحجّاج، ومن حدّة الصراع الناشب بين المؤمنين والسلطات المدنيّة. وتعهّدت إِحدى خالات برناديتّ بنفقات سفرها، وإِقامتها في منتجع النقاهة، التي دامت نحو ثلاثة أَسابيع.

وسرعان ما أَصبحت الفتاة المباركة، في ذلك المكان، قبلة المرضى الذين كانوا يلتمسون صلواتها. فكُلِّف مفوّض شرطة تلك المحلّة بمراقبتها عن كثبٍ، ولكنّه لم يتسنّ له سوى التحقّق من بساطتها وشفافيّتها، ومجّانيّتها، ورفضها القاطع لأَيّة مكافأةٍ، أو أَيّ أَجرٍ.

وسرعان ما تبيّن للسلطات المدنيّة أَنّ المشكلة لا تثوي في برناديتّ، بل في المغارة.

ومع حلول شهر تمّوز تدفّقت جموع المصطافين، وطالبي

النقاهة، من مختلف أَرجاء فرنسا وأوروبّا إِلى منطقة البيرينيه المشهورة بجبالها، ومياهها المعدنيّة. وكانت أَخبار مغارة لورد هي مدار أَحاديث الجميع في كلّ مكانٍ. وقد رغب كثيرون من القادمين في زيارة ذلك المكان الذي باركته السماء – بدافع الإِيمان، أَو بدافع الفضول – وقد استنكر معظمهم التدابير القمعيّة المفروضة بُغيةَ الحؤول دون الوصول إِلى المغارة. وكثيرون منهم تحدّوا الأَوامر، وخالفوها غير هيّابين، ولم يتردّدوا في الإِفصاح عن أَسمائهم كي تُنظَّم بحقّهم مخالفاتٌ. وكان بعض تلك الأَسماء يلقي الرعب في قلب العمدة، وقلب المحافظ نفسه، مثل اسم الأَميرالة «بروات» مربّية سموّ الأَمير الإِمبراطوريّ.

الظهور الأَخير: ١٦ تمّوز ١٨٥٨

نأت برناديتّ بنفسها عن كلّ ما كان من شأنه إِثارة التوتُّر، وانقطعت عن المثول إِلى المغارة، وعكفت على الصلاة في العزلة، ولم ترَ أَيّ ظهورٍ، بعد السابع من نيسان، ولا حتّى يوم مناولتها الأولى. لم تحرّض على المقاومة يوم أَمر المحافظ بسدّ مداخل المغارة بالحواجز، واثقةً من أَنّ العذراء هي التي ستتدبّر الأُمور لمجدها ومجد ابنها. وفي حين كان بعض المندفعين يفخرون بأَنّ ضبوط مخالفاتٍ نُظّمت بحقّهم، كانت برناديتّ تحذّر الناس من خرق حظر الدخول إِلى المغارة.

غير أَنّ هاتفًا داخليًّا أَهاب بها، في ليلة السادس عشر من تمّوز، يدعوها إِلى مغارة مسّابييل. ولم يصعب عليها تبيُّن أَنّه صادرٌ عن الزائرة السماويّة التي باتت تعرف هويّتها. خشيت

من عواقب تحدّي السلطات، ولا سيّما على ذويها. وإذ لم يكن من الشخوص إلى المغارة بدٌّ، فليكن في الكتمان الأقصى، وبمعزلٍ عن لفت الأنظار.

تريّثت حتّى غابت الشمس، وخيّم الظلام، وتنكّرت في معطفٍ داكنٍ استعارته من خالتها، وهرعت نحو ضفّةٍ محاذيةٍ للمغارة، هي ملكٌ خاصٌّ لقومٍ قدّموه، طوعًا، للراغبين في الصلاة، على مقربةٍ من المغارة، وبمنأًى عن حظر السلطات. كان هناك، مؤمنون يصلّون، وقد أشعلوا الشموع، فركعت بينهم، مثلهم، وأشعلت شمعتها.

وما كادت تشرع بتلاوة المسبحة، حتّى تباعدت يداها اللتان كانتا مضمومتين، وأشرق وجهها، الذي ما لبث أن كساه الشحوب، مثلما كان يحدث في أثناء الظهورات السابقة. وقد ابتسمت لها العذراء ابتسامةً عذبةً، وكأنّها تؤكّد الماضي كلّه، وتنير كلّ المستقبل. لم تتفوّه شفتاها القدّوستان بأيّة لفظةٍ. ولكنّ الزائرة السماويّة انحنت، لحظةً، نحو رأس الفتاة، وكأنّها تودّعها، ثمّ توارت.

وأَفادت برناديتّ، وهي في طريق العودة: «لم أَكن أَرى أَلواح الحواجز، ولا النهر. كنت أَشعر أَنّني داخل المغارة، لا تفصلني عنها أَيّة مسافةٍ، كما كنت أَراها في الظهورات السابقة. ولم أَكن أَرى سوى العذراء كلّيّة القداسة».

لم يكدّرها صمت العذراء، فحسبُها أَنّها شاهدتها، كي تمتلئ فرحًا.

وقد أَكّدت أَنّ جمال السيّدة، في ذلك اليوم، قد فاق كلّ ما رأَته من جمالٍ، سابقًا.

وعادت إِلى البيت، وكأَنّه لم يحدث شيءٌ. ولم يعلم بالأَمر حتّى مفوّض الشرطة، الذي لم يكن يخفى عليه، ممّا يدور في لورد، أَمرٌ.

واستأنفت مسيرة حياتها العاديّة، البسيطة، الحافلة بالإِيمان، والوفاء للّه ولأُمّه.

صور لبرناديتّ

برناديتّ

برناديتّ

الأب پيرامال

المصلّى الذي طالبت به العذراء

مزار لورد اليوم

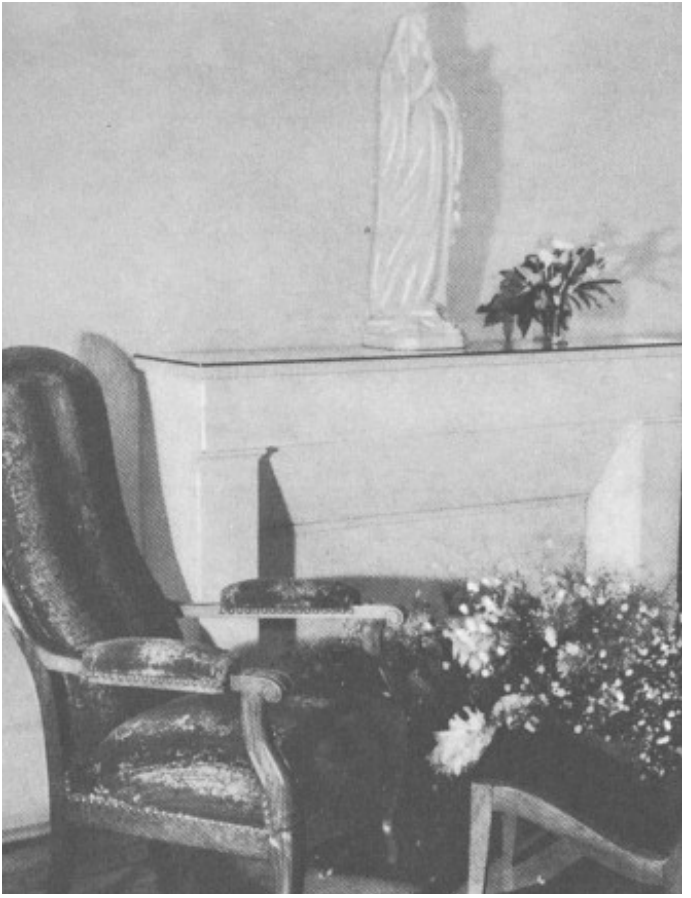

على هذا الكرسيّ توفّيت برناديتّ في ١٨٧٩/٤/١٦

قاعة المرضى في دير القدّيس جيلدار حيث توفّيت برناديتّ

الفصل الثالث

برناديتّ

برناديتّ الشاهدة والشهادة

في أَثناء انخطافاتها، كانت برناديتّ شاهدةً، من غير أَن تعلم. تجلّي محيّاها، وحرارة صلاتها، كانا سببًا في تحوّل نفوس كثيرين ممّن شاهدوها، وفي ارتدادهم. في أَثناء تلك الانخطافات، كانت منقطعةً تمامًا عن العالم، لا تسمع حتّى المقرَّبين الذين كانوا يودّون مخاطبتها. ولكن، بعد الظهورات، كانت الاستجوابات تنهال عليها من كلّ صوبٍ، فتصبح، مدى ساعاتٍ طوالٍ، ضحيّة المستوضحين والمحقّقين، مؤمنين وملحدين، معجَبين ومناوئين، فضوليّين، وبسطاء يسعون إِلى تدعيم إِيمانهم.

منذ الحادي والعشرين من شباط ١٨٥٨، خضعت لاستجواباتٍ رسميّةٍ من قِبَل الشرطة والقضاة، والأَطبّاء

المكلَّفين بإصدار شهاداتٍ تبرّر إيداعها في مصحّةٍ عقليّةٍ، ومن قِبَل كهنةٍ كانت تخشاهم كما تخشى اللّه.

تلك الفتاة الأُمّيّة والبسيطة أَصبحت هي العماد الذي سيقوم عليه مستقبل لورد، والحجّ إليها، ومصير الكنيسة التي طلبت العذراء بناءَها. وقد نهضت بهذه المهمّة بهدوءٍ، واتّزانٍ، وذكاءٍ. وكانت، بذلك، من أَكثر وجوه الظاهرة إدهاشًا.

كانت أَجوبتها تنبع من تلقائيّتها، بمنأًى عن كلّ تدبيرٍ مسبقٍ، وعن كلّ حسابٍ وخوفٍ، أَو مصانعةٍ، بعباراتٍ موجزةٍ، مباشرةٍ، محقَّقةً، من غير أَن تدري، نصيحة الإنجيل: «ومتى اقتادوكم إلى المجامع والحكّام، وذوي السلطان، فلا تهتمّوا كيف تحتجّون، ولا بما تقولون. فإنّ الروح القدس يلهمكم، في تلك الساعة، ما ينبغي أَن تقولوه» (لوقا١٢:١١). هنا يكمن كلّ سرّها، الذي جعل الجميع يعترفون بحكمتها وصدقها.

ولا ريب أَنّها استفادت من عون بعض المؤهّلين الذين

آمنوا، منذ البدء، بظاهرة لورد. فقد حذّرها محامٍ محنَّكٌ من الفخاخ التي قد تنصب لها، ونصحها رئيس محكمةٍ من استدعاءات المدَّعي العامّ غير النظاميّة.

غير أَنّ صفاء نفسها، وانقيادها لإلهام السماء، كانا أَكثر عونًا لها من كلّ النصائح. ففي شهاداتها، كما في انخطافاتها، كان كلّ سرّها يكمن في شفافيّتها.

وقد أَكّد كاهن رعيّة لورد، الأَب پيرامال، في هذا الشأن: «كانت بتصرّف الجميع، فأَمست للبعض قدوةً تُحتذى، ولآخرين سبب إِدهاشٍ وخزي».

كانت إِجاباتها موجزةً، واضحةً، محدّدةً، لا تتخطّى السؤال. ولم تكن تهتمّ بتأثير أَقوالها على الغير، ولا تسعى إِلى إِقناع أَحدٍ، وتنأى عن الجدال، وبذلك وَقَت نفسها من الوقوع في الفخاخ.

غير أَنّها كانت تمقت، عمومًا، زيارات المعجبين والمحقّقين. وغالبًا ما كانت، وهي في الدير، تبكي كلّما طُلِب منها التوجّه إِلى ردهة الاستقبال، لهذا الغرض.

كثيرون ممّن حاوروها، افتُتنوا بصراحتها، وبساطتها، وصدقها. فقد قابلها محامٍ، أُخذ، للوهلة الأولى، بذكائها وبساطتها، وجمالها، ولكنّه ضاق ذرعًا بأَعراض الربو التي كانت تنتابها، وبسعالها المتواصل. فاستفسرها:

– هل التمست الشفاء من علّتك؟

– كلاّ!

– وما هي أَسرارك؟

– إِنّها تخصّني وحدي.

– وإِن طلب منك البابا أَن تبوحي له بها، فهل ستبوحين؟

– كلاّ!

– وإِن رفض معرّفك منحك مناولة الفصح، بسبب هذا الرفض؟

– لن أَبوح بالأَسرار!

– إِنّني أَعرف أَحد أَسرارك. ستصبحين راهبةً.

فضحكت وأجابت:

– إنّ أسراري أخطر من هذا.

– هل يُزعجك أن تُسألي عن أسرارك؟

– كلاّ، ولكن السيّدة أمرتني بألاّ أبوح بها.

وقد أفلح المحامي، بفضل إلحاحه، في استنتاج أنّ الأسرار تتعلّق بحياة برناديتّ الخاصّة، ولا شأن لها بالحجّ، ولا بفرنسا، وهذا ما يبرّر تكتّمها.

واتّفق أنّ أُسقفًا قدّيسًا، بعد أن استمع إليها، كان من عمق التأثّر، بحيث حنى رأسه أمامها، وطلب منها أن تباركه؛ ولكنّها سبقته، وجثت أمامه، والتمست بركته.

وكان الكاتب الفرنسيّ الشهير، والصحافيّ «لوي ڤيّو» (Louis Veuillot) قد وصل إلى لورد في منتصف شهر تمّوز ١٨٥٨، وأجرى حوارًا مع برناديتّ، صرّح في إثره:

– إنّ برناديتّ أُمّيّةٌ، ولكنّها خيرٌ منّي!»

وبعد شهرٍ من تلك المقابلة؛ نشر في صحيفته، «الكون»

(l' Univers)، مقالاً مسهبًا عن ظهورات لورد، كان له وقعٌ بليغٌ.

وكان أُسقفان قد قابلاها، وأُخذا بشفافيّتها وصراحتها، وأيقنا بصحّة الظهورات، وألحّا في طلبهما من أُسقف «تارب» الذي تخضع أبرشيّة لورد لسلطته، بالتدخّل، إيجابيًّا، فأصدر، في ٢٨ تمّوز، قرارًا بتأليف لجنة تحقيقٍ كنسيٍّ، تستعين بخبراء في ميادين الطبّ والفيزياء، والكيمياء، والجيولوجيا، وتستخدم كلّ الوسائل للوصول إلى الحقيقة.

وما كاد الأُسقف يوقّع هذا القرار حتّى تلقّى من وزير التربية والأديان رسالةً بنى مرسلها فحواها على ما نُقِل إليه من مهازل قام بها صبيةٌ ونسوةٌ، بتحريضٍ من مفوّض الشرطة ومن المحافظ، مدَّعين رؤًى وظهوراتٍ، وقائمين بتبريك مسابح في المغارة، لقاء أَجرٍ، بُغيةَ الإساءة إلى الظاهرة. وتلقّف الوزير هذه الشائعات، ومع أنّه لم يتحقّق من صحّتها، بنى عليها حكمه، وحضّ الأُسقف على نفي الظاهرة برمّتها. لقد طلب إدانةً مبرمةً، ولكنّ الأُسقف أجاب أنّ القضيّة قيد

التحقيق، مؤكّدًا بطلان كلّ ما جاء في رسالة الوزير، بناءً على تقارير موظّفيه المغرضة.

في هذه الأثناء، نشر البروفسّور «فيلهول» الذي كُلِّف بإجراء تحليلٍ جديدٍ وجدّيٍّ لماء نبع مغارة لورد، نتائج تحليله التي أكّدت أنّه ماءٌ صالحٌ للشرب، مثل كلّ ماء نبعٍ في تلك المنطقة، وأنّه خالٍ من أيّة خواصّ شافيةٍ. وانهار كلّ ما بناه أعداء الظاهرة، اعتمادًا على تحليلٍ مزيّفٍ، كان المحافظ قد أمر بإجرائه، خدمةً لأغراضه، ودعمًا لمزاعمه.

ماء لورد لم يكن يحتوي عناصر شافيةً، ومع ذلك كان يشفي، ولم يكن الشفاء ناتجًا عن تكوينه. ووقع الكذب والغشّ في الشباك التي نصباها.

كانت المغارة قد أُغلقت بحجّة الحرص على سلامة الإيمان، وعلى صحّة المواطنين، ريثما يُظهر التحليل صلاحيّة مياه النبع. أمّا سلامة الإيمان، فقد تولّى أمرها الأُسقف بتعيينه لجنة تحقيقٍ. وأثبت التحليل العلميّ صلاحيّة الماء، وسقطت الحجّتان وبقيت كبرياء المدّعين والمناوئين حجر عثرةٍ.

لم تبقَ لهم من حجّةٍ سوى شنّ الحملات الصحفيّة المندّدة بالظهورات المزعومة، والجاهدة في إظهارها بمظهر الخرافة والخدعة. وقد تولّت هذه الحملات صحفٌ مناوئة للدين في فرنسا، وبلجيكا وهولندا، ومدنٍ أوروبّيّةٍ مختلفةٍ، وكانت جميع هذه الصحف ترفض، مبدئيًّا، فكرة المعجزات، وتعدّها باليةً، والبحث فيها غير لائقٍ بمثقّفين متنوّرين.

وتصدّت الصحافة المسيحيّة للردّ على الحملات الخبيثة، وعلى التخرّصات والحجج الواهية، وللذود عن الحقائق السامية التي حاول الآخرون تشويهها، وقد اضطلع بهذه المهمّة، أحيانًا، كتّابٌ ذائعو الصيت، أمثال «لوي ڤيّو». كانوا يدعون إلى تحقيقٍ يُبرز الحقيقة، فيما الآخرون كانوا يرفضون حتّى البحث في الأمر، خوفًا من حقيقةٍ تتخطّاهم، وتُطيح بفلسفاتهم المادّيّة، ويحرّضون السلطات المدنيّة على القمع العنيف.

وفي نهاية المطاف لم تؤدِّ الحملات المناوئة إلاّ إلى إذاعة ما كان يجري في لورد، على امتداد أوروبّا كلّها. غير أنّ وزير

التعليم والأَديان مضى قُدُمًا في التجنّي على الحرّيّات، وكذلك فعل مفوّض الشرطة الذي تمادى في مراقبة ومعاقبة كلّ من يجرؤ على زيارة المغارة.

وأَخيرًا لجأ المؤمنون إِلى الإِمبراطور، نابوليون الثالث، فجاءه وفدٌ عنهم مؤلّفٌ من أُسقفٍ وثلّةٍ من الأَعيان، بسطوا بين يديه الوقائع والمظالم، والتمسوا منه، باسم حرّيّة الضمائر التي تعلو فوق كلّ سلطةٍ بشريّةٍ، أَن يُسمح للمؤمنين بالصلاة في المغارة، إِن هم رغبوا في ذلك، وباسم أَبسط المبادئ الإِنسانيّة، أَن يُتاح للمرضى بارتيادها التماسًا للاستشفاء، إِن كان ذاك هو رجاؤهم، وباسم حرّيّة الفكر، أَن يُتاح للأَذهان التي تنشد النور، أَن تغشى ذلك المكان للدراسة والتمحيص، وتمييز الحقيقة عن الخداع.

وكان الإِمبراطور ميّالاً إِلى توفير كلّ هذه الحرّيّات الأَساسيّة. ولمّا أُحيط علمًا بالمظالم الفادحة التي يمارسها الوزير والمحافظ وأَزلامهما، التمع غضبٌ مكتومٌ في عينيه، وارتسمت على جبينه غيمة استنكار، فنادى حاجبه، وقال له:

– «خذ هذا إلى مركز البرق»

وسلّمه نصّ برقيّةٍ موجزًا موجّهًا إلى محافظ «تارب»، يأمره بإلغاء قرار إغلاق مغارة لورد، وبإشراعها في وجه الجماهير.

وقعت البرقيّة على المحافظ وقع الصاعقة، مطيحةً برشده وقراره. شقّ عليه التراجع، والإقرار بالهزيمة، وفي الآن عينه لم يكن لديه من خيارٍ سوى الخضوع أو الاستقالة. ولكن ما زال يداخله أملٌ مُبهَمٌ بأن يتراجع الإمبراطور عن قراره، فكتم أمر البرقيّة بضعة أيّامٍ، والتمس من وزيره إقناع الإمبراطور بالعدول عن أمره، ولا سيّما أنّ هذا الأمر كان قد صعق الوزير، بقدر ما صعق المحافظ.

هذه المحاولات اليائسة زادت الإمبراطور قناعةً بأنّ كبار موظّفيه يسيئون استخدام سلطاتهم. فردّ ببرقيّةٍ تؤكّد برقيّته السابقة، وتقضي بتنفيذ محتواها بلا تلكّؤ.

وأخيرًا بين غطرسته ووظيفته اختار المحافظ الوظيفة، ولم يجرؤ على مقاومةٍ محكومٍ عليها بالفشل. ولكنّه جهد في

تمويه هزيمته. وكان أَمر برقيّة الإمبراطور قد تسرّب إِلى علم الجموع، وأَضحى حديث الناس، فلم ينفِه المحافظ، ولم يؤكّده، واكتفى بالإيعاز إِلى مفوّض الشرطة وأَزلامه، بالإقلاع عن مراقبة المغارة، وعن معاقبة زائريها. وخُيّل إِليه أَنّ هذا التدبير سيكون كافيًا لإعادة الأُمور إِلى سابق مجراها، من غير حاجةٍ إِلى إِعلانٍ رسميٍّ، متوقّعًا أَن تعمد الجماهير إِلى إِزالة الحواجز واليافطات التي تمنع من الوصول إِلى المغارة. غير أَنّ الجماهير خشيت أَن يكون تراخي الحراسة والمراقبة، والإقلاع عن تنظيم المخالفات، مجرّد فخٍّ للإيقاع بهم، فظلّوا يلتئمون، للصلاة، على ضفّة النهر المقابلة للمغارة.

وبات المحافظ يخشى أَن يرى الإمبراطور، في بقاء الوضع على حاله، عصيانًا لأَوامره، ومماطلةً خبيثة المقاصد. وسرعان ما تحوَّلت غطرسته إِلى خضوعٍ ذليلٍ. وفي الثالث من تشرين الأَوّل أَمر عمدة لورد، باسم الإمبراطور، بإلغاء قرار إِغلاق المغارة، وبنزع كلّ الحواجز وإِشارات التحذير.

سعد العمدة بتنفيذ هذا الأَمر، واستعادة رضا مواطنيه، وتدافعت الجموع إِلى المغارة كي ترفع إِلى اللّه آيات الشكر، وتصلّي، وتستقي من الماء المبارك. ولكن لم يُقدم أَحدٌ من أَفراد الشعب على هدم الحواجز، حرصًا منهم على أَن يزيلها من وضعها، اعترافًا بخطئه، وهزيمته أَمام قوى السماء.

ووافى مفوَّض الشرطة، في زيّه الرسميّ، يصحبه موظّفوه، مسلّحين بمعاول الهدم. وخطب في الجموع مؤكّدًا أَنّه أَسعد الناس، بإِزالة الحواجز التي نصبت في وجه التقوى الشعبيّة، والتي كان قد أَمر بإِقامتها، مُكرَهًا، امتثالاً لأَوامر سلطاتٍ عليا. وأَكّد أَنّ الفضل في تبدّل المواقف يعود إِلى هدوء الجماهير، واحترامها للسلطات، ولمناعة إِيمانها.

التحقيق الكنسيّ

في السابع من كانون الأوّل ١٨٦٠ استُدعيت برناديتّ إلى الاستجواب الكبير أمام أُسقف «تارب» المتجهّم، وقد أحاطت به لجنةٌ من ١٢ عضوًا بوجوههم الجامدة، وكأنّها محفورةٌ بإزميلٍ. وكانت تلك بداية سلسلةٍ من الاستجوابات المتمادية المنهكة.

وقد مثلت برناديتّ أمام لجنة التحقيق، بتواضعٍ سحيقٍ، وثقةٍ لا تتزعزع، وبراءةٍ تفرض التصديق والاقتناع. لم يرهبها وقار المحقّقين، ولا أربكتها أسئلتهم المعقّدة. بل كانت تجيب بكلّ بساطةٍ وصراحةٍ، فتدلي بما تعرفه، ولا تخشى الاعتراف بنسيانها بعض التفاصيل. وبأجوبتها ورواياتها الواضحة والدقيقة، أزالت كلّ لبْسٍ وريبةٍ.

سُئلت برناديتّ:

«هل كانت هالةٌ تحيق بوجه العذراء؟

– هالة؟ (لم تفهم معنى هذه اللفظة. وعندما فُسِّرت لها، أَجابت):

– كانت محاطةً بنورٍ رقيقٍ.

وهل رأيتِها بوضوحٍ؟

– أَجل.

– وهل كان النور يشعّ مع الظهور، وفي الآن عينه؟

– كان يسبقه قليلاً، ويتلبّث بعض الوقت، بعده.

– فكرة إِكراهك على التهام العشب، تبدو غير لائقةٍ بالعذراء!

– وأَلا نلتهم خسًّا؟

– وفي ختام الاستجواب، طُلب من برناديتّ تمثيل قول العذراء، في ٢٥ آذار ١٨٥٨: «أَنا الحبل بلا دنس». فنهضت، وبسطت ساعديها، ثمّ ضمّت يديها. فسرى، في الموجودين، تأثيرٌ روحيٌّ بليغ. ولوحظت دمعتان تتدحرجان

على وجنتي الأُسقف العجوز، الذي قال لمعاونه، عقب الاستجواب، والتأثّر ما زال مستحوذًا عليه:

– «هل شاهدت هذه الطفلة؟!».

وبعد ثلاثة عشر شهرًا، أَصدر ذلك الأُسقف بيانًا يقول:

– «نرى أَنّ أُمّ اللّه المنزّهة من الدنس قد ظهرت، حقًّا، لبرناديتّ».

موقف الأُسقف هذا أَخرس المقاومين والمشكّكين. غير أَنّ أَسئلةً ماكرةً ما انفكّت تنهال عليها. فقد سألها، يومًا، أَحد الكهنة:

– «لو أَنّ الأُسقف أَصدر حكمًا يعلن أَنّك مخطئةٌ في إِفادتك، فما عساه كان موقفك؟

– في أَيّة حالٍ، لم يكن بوسعي أَن أَقول إِنّني لم أَرَ ولم أَسمع!».

واستجوبت اللجنة جميع الذين بلّغوا عن أَشفيةٍ أُنعِم بها عليهم، مستعينةً بأَطبّاء وعلماء طرحوا كلّ ما يتوجّب من

أَسئلةٍ مفصَّلةٍ ودقيقةٍ، كفيلةٍ باستنتاج طبيعة هذه الأَشفية، وهل هي طبيعيَّةٌ، أَو هل يتعذّر تفسيرها إِلاّ بتدخّلٍ فائق الطبيعة.

كان على كلّ شاهدٍ تستجوبه اللجنة ألاّ يشهد إِلاّ بما رأى بأُمّ عينيه، وأَن يُقسم على قول الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة.

وكانت اللجنة واعيةً لتربّص أَعداء الدين بظاهرة لورد، وحريصةً على ألاّ تُفسح لهم ذريعةً لاتّهاماتها بالوقوع ضحيّة الادّعاء والغشّ والهلوسة.

وتحقّقت، أَيضًا، بفضل الظهورات، تحوّلاتٌ نفسيّةٌ أَكثر إِدهاشًا من الأَشفية الجسديّة. ولكن بما أَنّها لا تقع تحت تمحيص العلم، فلم تأخذ بها لجنة التحقيق.

وقد ذكرت اللجنة في تقريرها أَنّ كلّ دواءٍ طبّيٍّ يُثبت فعّاليّته في داءٍ معيّنٍ، ولا فعّاليّة له على أَمراضٍ أُخرى، في حين أَنّ ماء لورد كان أَداة شفاء أَمراضٍ من كلّ نوع. وبين مئات الأَشفية التي خضعت لتمحيص اللجنة، تبيّن أَنّ ستّة

عشر منها لا يمكن تفسيرها علميًّا. وكانت هذه الأَمراض شديدة التباين في طبيعتها. ومن ثمّ لم يكن ماء لورد فاعلاً بخواصّه الذاتيّة.

كانت، إِذن، ثمّةَ، مفارقاتٌ مذهلةٌ:

وسيلةٌ مغرقةٌ في البساطة، تقابلها نتائج جسيمةٌ عجيبةٌ،

وحدة الدواء، وتعدّد الأَمراض،

قِصَر مدّة العلاج، وآنيّة المفعول، في حين يستلزم استخدام الأَدوية البشريّة وقتًا طويلاً، وقد لا يؤتي بُرءًا.

شفاءٌ آنيٌّ لعللٍ مزمنةٍ،

إِذن، قدرةٌ أَعلى من قدرة الماء الذاتيّة.

حيال كلّ هذه الدلائل الدامغة، لم يكن لدى الأُسقف سوى الاقتناع والتسليم. ومع ذلك منح للوقت فسحةً، ولم يصدر حكمه إِلاّ بعد مضيّ ثلاث سنواتٍ، جرى، في نهايتها تحقّقٌ ثانٍ من المعجزات، وتأكّدٌ من استمرارها.

الراعية والمثّال

قرَّرت آنساتٌ من أُسرة «لاكور»، من سكّان مدينة ليون، استبدال التمثال الخزفيّ الصغير الذي نصبته التقوى الشعبيّة في مغارة لورد، بتمثالٍ آخر، منحوتٍ من المرمر، بالحجم الطبيعيّ. وبالاتّفاق مع أُسقف لورد، تمّ التعاقد مع المثّال «جوزيف فابِش» (FABISH)، وهو عضوٌ في أَكاديميّة العلوم والفنون الجميلة في ليون، على صنع التمثال مطابقًا، إِلى أَبعد حدٍّ ممكنٍ، لوصف برناديتّ للعذراء كما ظهرت لها.

وصل النحّات إِلى لورد في السابع عشر من أَيلول ١٨٦٣، واستدعيت برناديتّ لمقابلته، والردّ على استيضاحاته. وكان قد وافق، خلافًا لقواعد الفنّ التي كان يؤمن بها، على ألاّ يضفي على التمثال ملامح تعبّر عن

استنتاجاته الشخصيّة، ووحيه الخاصّ. وكان قد أَعدّ عشرين سؤالاً، فحوى أَحدها:

– كيف ضمّت السيّدة يديها، عندما أَعلنت: «أنا الحبل بلا دنس»؟

وإِليكم الملاحظة التي دوّنها عن ردّها:

«نهضت برناديتّ، بكلّ بساطةٍ، وضمّت يديها، ورفعت عينيها إِلى السماء. أَنا لم أَشهد، قطّ، أَجمل من ذلك المشهد، ولم يرسم، يومًا، «فيزولي» (Fiesole)، ولا «بيروجان» (Perugin) ولا رفائيل، ما يعادل، عذوبةً وعمق نظرٍ، منظر تلك الفتاة الساذجة، والمبتلاة بالسلّ حتّى أَطراف أَصابعها... هي التي لم تعِ، قطّ، عظمة النعمة الفائقة التي كُرّمت بها».

رافق النحّات برناديتّ إِلى المغارة، وجرّب تشكيل تمثالٍ من الورق بُغيةَ تحديد القامة والوقفة المطلوبتين. ثمّ عرض أَمام برناديتّ صورًا عديدةً للسيّدة العذراء، في مواقف متنوّعة، فلم تشدّ أَيّةٌ منها انتباهها، ولكن عندما مرَّت، أَمام عينيها،

صورة العذراء المنسوبة إلى القدّيس لوقا، وضعت يدها فوقها قائلةً:

– يوجد شيءٌ منها هنا. ولكن ليست هذه صورتها بالضبط!

بعد نحو شهرين أرسل المثّال إلى كاهن رعيّة لورد صورةً للنموذج الذي كان قد أعدّه من الجبس، بثلثَي الحجم النهائيّ، فجاءت ملاحظات برناديتّ قاسيةً تقول:

«لا يبدو الوجه شابًّا ومبتسمًا بالقدر الكافي... حجابها كان ينحدر عموديًّا، وبشكلٍ متساوٍ...، اليدان كانتا أوثق انضمامًا، والأصابع ملامسةً بعضها بعضًا... الرِجل اليُسرى تبدو منزاحةً أكثر من الواقع...»

غير أنّ الكاهن لم يتقيّد بملاحظاتها، ولم يُلزم النحّات بها، وأفسح له فرصة التوفيق بين إلهامه، وتلك الملاحظات.

وعندما جيء بالتمثال دُعيت برناديتّ إلى الإدلاء برأيها فيه. ومع أنّ الكاهن الذي توقّع انتقادها، كان قد طلب منها أن تُصانع. غير أنّ فطرتها الصريحة لم تمكّنها من التظاهر

بغير ما تضمر، فهتفت بنبرة أَسفٍ، لا بل بشيءٍ من الغضب:

– كلاّ! ليست هذه هي!

لقد أَخذت على التمثال إسرافه في التصنّع، فالعذراء كانت، في الواقع، بساطةً وتجرّدًا، وتناغمًا. وعارضت الفتاة الإسراف في تغضّنات حجاب العذراء وثوبها، وانحناء رأسها، وميلانه إلى الوراء، في حين كانت تؤثره مستقيمًا فوق الكتفين. كما استهجنت قامة التمثال التي بلغت ١٧٠ سنتمترًا، في حين هي كانت تقدّره بما لا يتجاوز ١٤٠، ولم تستسِغ ظهور سيّدة التمثال مسنّةً، في حين كانت هي تراها فتاةً صغيرةً جدًّا.

وخشي الأَب پيرامال أَن تدفعها صراحتها إلى إعلان احتجاجها على التمثال، يوم تنصيبه؛ ولكنّ المرض حال دون حضورها وحضور الكاهن احتفال ذلك التنصيب.

مسيرة برناديتّ بعد الظهورات

في منتصف شهر أيلول ١٨٥٨ انتقل ذوو برناديتّ إلى منزل يخصّ أقارب لهم، أكثر توفيرًا للشروط الصحّيّة من السجن العتيق، بعد أن حذّرهم الأطبّاء الذين فحصوا برناديتّ في ٤ آذار، من تأثير هذا المسكن الزريّ الوبيل على صحّة أبنائهم.

وفي مطلع عام ١٨٥٩ استأجر فرنسوا سوبيروس مطحنة هجرها أصحابها فاستفادت برناديتّ من مفعول الهواء الطلق، وخفّت وطأة هجمات الربو التي كانت ترهقها، ولكنّ تلك الهدنة لم يطل أمدها. فقد انتابتها، ثانيةً، في شهر آب من تلك السنة نوبة ربوٍ شديدةٌ ألزمتها الفراش.

ومع ذلك، ما انفكّ كهنةٌ وصحافيّون يلاحقونها بأسئلتهم، وكانت أجوبتها، دائمًا، واضحةً، صريحةً،

وجيزةً. فهي لم تخفِ أنّها لم تعد إلى المغارة لأنّ لا شيء كان يدفعها إليها، كما كان يحدث في أثناء الظهورات، وأنّها لم ترَ العذراء منذ ذلك الحين، حتّى في يوم مناولتها الأولى. أمّا عن الأشفية العجيبة التي كان القوم يتداولون أخبارها، فأكّدت أنّها لم تشهد بعينيها أيًا منها، ولم تسهم في أيٍّ منها بأيّ سببٍ.

وكان على برناديتّ، في تلك الفترة، أن تكافح على أربع جبهاتٍ:

– العمل من أجل كسب عيش ذويها وإخوتها، فكانت تعمل، أيّامًا كاملةً، خادمة أطفال.

– المساعدة في أعمال البيت، واعيةً واجباتها، بصفتها البنت الكبرى، والسهر خاصّةً، على شقيقتها «توانيت»، التي اشتهرت بطيشها.

– استقبال الزائرين، والردّ على أسئلة المحقّقين، في منزل ذويها، وأينما استدعيت. وكانت شهادتها أساسيّةً في بناء المزار، وإقرار الحجّ إليه. غير أنّ تدفّق الزائرين، وسخاء آل

سوبيروس الذين لو يقووا على وضع حدٍّ وقيدٍ له، ما لبث أَن أَوقعهم ثانيةً في أَزمةٍ ماليّةٍ.

وفي سبيل حماية برناديتّ، وتخفيف عبء ذويها ارتأى كاهن الرعيّة، وعمدة المدينة، إِيداعها في المأوى البلديّ، بصفة مريضةٍ فقيرةٍ، مع إِمكانيّة متابعة دروسها في مدرسةٍ تديرها راهباتٌ، محاذيةٍ للمأوى. وقد شقّ على برناديتّ البعاد عن ذويها، كما شقّ على ذويها بعدها عنهم. ولكن تمّ الاتّفاق على أَن يُسمح لها بزيارتهم حينما تشاء، على أَن تكون برفقة راهبة.

وانتقلت برناديتّ إِلى المأوى في ٢٥ تمّوز، ولبثت فيه حتّى مغادرتها النهائيّة لمدينة لورد. لقد أَصبحت محميّةً، ولكن كم كانت تلك الحماية مذلّةً! وبعد أَن كان وجودها بين الناس، تحت إِشراف كاهن الرعيّة، شهادةً حيّةً، مقنعةً، خضعت لأُسلوبٍ تربويٍّ كان شائعًا في تلك الحقبة، يقضي بإِذلال من وُهبوا كراماتٍ فريدةً، منعًا لشحذ كبريائهم. وهكذا باتت برناديتّ كلّما وافاها زائرٌ أَو محقّق تُقتاد إِلى ردهة الاستقبال، حيث ينهال عليها وابلٌ من الإِعجاب والنقد معًا.

كانت قد بلغت السادسة عشرة، ولم تغشَ مدرسةً، فكانت لها تلك فرصةً لنيل التعليم الأساسيّ، الذي أضحى لها، في تلك السنّ، قاسيًا ومرهقًا. غير أنّها أثبتت براعةً في العمل اليدويّ، ولا سيّما التطريز، ولكن غالبًا ما كان الجهد البدنيّ يرهق رئتيها.

وتجلّى لديها ميلٌ إلى إشاعة البهجة حولها، ولا سيّما لدى التلميذات الصغيرات. كانت كلفةً بالضحك، ولم تتصنّع، يومًا، هيئة التمثال التي كان بعضهم ينتظره من رائية العذراء. غير أنّ بعض الراهبات المتعنّتات أخذنَ عليها مغالاتها في تلك النزعة. وكنّ يؤثرنَ لديها مزيدًا من الجدّ والوقار.

وأخذنَ عليها، أيضًا، ما سمّينَه «عنادها». فعندما كانت تُمنع من زيارة ذويها، كانت تذكّر بالوعد الذي قُطع بهذا الشأن، وبواجب الالتزام به. وإذا ما لحظت ظلمًا واقعًا على أترابها، من جرّاء إفراطٍ في استخدام السلطة، كانت تنبري للذود عنهنّ. وكانت بعض الراهبات يعددن هذه المواقف غير لائقةٍ بمن ظهرت لها العذراء.

من جانبٍ آخر، كانت مواظبةً على واجبات العبادة، لا تُنقص منها شيئًا، ولا تفرّط فيها. كانت دائبةً على رسم إشارات الصليب. وقد مُنحت ترخيصًا خاصًّا بالتناول كلّ يوم أحدٍ، بل في أثناء أيّام الأُسبوع الأُخرى، وكان ذلك امتيازًا حينذاك. وكانت، حينئذٍ، حريصةً على الامتناع عن تناول أيّ طعامٍ أو شرابٍ، بل حتّى الدواء، منذ منتصف الليل الذي يسبق المناولة، وفقًا لما كان مفروضًا آنذاك. بيد أنّها، بصعوبةٍ، اعتادت التأمّلات الطويلة.

وكانت تمقت لمس الأشياء بغية مباركتها، وترفض فعل ذلك. وقد يلجأ أشخاصٌ مرموقون وأساقفة إلى الحيلة، فيسقطون أشياء من يدهم، مثل مسابح وسواها، أملاً في التقاطها لها، ولكنّها كانت تكتشف الحيلة وتقول، أنا آسفة، ولكنّني لست من أسقطها.

وعندما تعلّمت برناديتّ الكتابة بات القوم يلتمسون توقيعها، وكانت تنفر من ذلك أيضًا، فألفت كتابة عبارةٍ موجزةٍ تعني «صلّوا من أجل برناديتّ»: (p. p. Bernadette)

وكانت تأبى أَن تؤخذ لها صورٌ فوتوغرافيّة. بيد أَنّ نوبات الربو كانت تهدّد دائمًا بخنقها، إِذ كانت تحول دون تمكّنها من الزفير، ومن طرد الهواء المحتبس في رئتيها. وبما أَنّ الخشية من وفاتها كانت، دائمًا، ماثلةً، حصل أَحد الكهنة على إِذنٍ بتصويرها، فأَخذت لها الصورة الأولى في نهاية عام ١٨٦١.

وحان أَوان القرار الحاسم الذي سيغيّر مسيرة برناديتّ لما تبقّى لها من أَيّامٍ على الأَرض.

برناديتّ الراهبة

في الرابع من نيسان ١٨٦٤، اعترفت برناديتّ للأُمّ، رئيسة المأوى الذي كانت تقيم فيه، أَنّها اختارت الرهبنة في الدير الذي كان المأوى تابعًا له.

هذا القرار كان قد نضج بتؤدّةٍ، في السرّ. كانت الحياة التأمّليّة قد استهوتها، ولكن سرعان ما تبيّنت أَنّ هشاشة صحّتها لا تؤهّلها لمثل هذه الحياة، فضلاً عن فقر ذويها الذي كان يحول دون توفير «الجهاز» الذي تقتضيه تلك الأَديرة. وقد رفضتها أَديرةٌ أُخرى، خوفًا من أَن يُفسد توافد الفضوليّين الراغبين في مشاهدة «الرائية» ومحاورتها، جوّ الصمت والسكون السائد، عمومًا، في تلك الأَماكن.

عام ١٨٦٣ كانت راهبات المأوى قد وجّهنها صوب العناية بالمرضى، وكانت تلك تجربةً حاسمةً استهوتها، وقد شهد

معرّفها الأَب «پوميان» (Pomian): «لقد أَكبّت (برناديتّ) على العناية بمسنّين «منفّرين»، وانصرفت إِلى تلك المهمّة بمحبّة، ووجدت فيها متعتها».

وكان أُسقفٌ قد زار دير راهبات «نوڤير» (Nevers)، فحاورها واستوضحها عن المستقبل الذي تتطلّع إِليه، فأَعربت عن رغبتها في البقاء في المأوى، وبيّن لها أَنّها لن تستطيع ذلك، ما لم تكن فيه راهبةً. فأَكّدت رغبتها في حياة الرهبنة، ولكنّها أَوضحت له العوائق الحائلة دونها: فقرها الذي لا يمكّنها من تأمين «الجهاز» المطلوب (أَي مجموعة الثياب الضروريّة)، وهزال مؤهّلاتها العلميّة، وملاحظات رئيساتها المُذلّة، المُنصبّة عليها، بلا انقطاعٍ، عملاً بالأُسلوب التربويّ السائد حينذاك، فقد كان يُقال لها باطّرادٍ، أَنّها «لا تنفع لشيء». ولكنّ الأُسقف وعدها بالمساعدة على تذليل العقبات المادّيّة، وأَكّد لها قدرتها على الاطّلاع بأُمورٍ كثيرةٍ، وأَنّها ستتلقّى، في مرحلة الابتداء، تدريبًا يؤهّلها.

وقبل أَن تُغلَق عليها أَبواب الدير نعمت بعطلةٍ مع ذويها.

ففي شهر تشرين الأوّل ١٨٦٤، التمست إحدى قريباتها، إذنًا بالمجيء بها إلى بلدة «مومير» (Momeres). وهذه البلدة هي مسقط رأس الأب «پيرامال»، ومكان إقامة أخيه الطبيب. ومُنحت برناديتّ إذنًا بقضاء يومين أو ثلاثة أيّامٍ، في تلك البلدة، ولكنّ عطلتها امتدّت، في الواقع، سبعة أسابيع، بفضل الأب پيرامال الذي أقنع أخاه الطبيب بمنحها شهادةً طبّيّةً تقضي بتمديد عطلتها تمديدًا غير محدود.

رغم انعتاقها من قيود المأوى، لم تهمل برناديتّ، طيلة تلك العطلة، أيّةً من الممارسات التقويّة التي ألفتها فيه، والتي غدت منهج حياتها، فظلّت حريصةً على حضور القدّاس، كلّ يوم، وزيارة القربان والمناولة ثلاث مرّاتٍ في الأُسبوع، وعلى تلاوة المسبحة اليوميّة. وكانت، وهي تصلّي، تبدو وكأنّها في حالة انخطافٍ، لفرط خشوعها.

في هذه الأثناء كان طلب انضمامها إلى دير «نوڤير» (Nevers) يُدرس في مركز الدير الرئيسيّ. الرئيسة العامّة كانت تخشى الفوضى التي قد تسبّبها شهرة برناديتّ، وكثافة

إقبال الزائرين، في حين كانت رئيسة الابتداء تتلهّف إلى مجيئها، وتقول:

– «ستكون لي أَعظم سعادةٍ في حياتي أَن أَرى العينين اللّتين رأتا السيّدة العذراء».

وأَيّد الأُسقف قبولها، وقد تقرّر هذا القبول، وبُلِّغته برناديتّ، يوم جاءت من «مومير» إِلى لورد، مع أَبيها، في ١٩ تشرين الثاني ١٨٦٤. وبلّغته هي لذويها، في سعادةٍ غامرةٍ.

غير أَنّ اعتلالاً مفاجئًا أَقعدها، من أَوّل كانون الأَوّل حتّى نهاية كانون الثاني، فلم تنهض من فراش المرض حتّى مطلع شباط ١٨٦٥، وأُرجئت، بالتالي، مباشرتها حياة الرهبنة.

ثمّ أَرجئ موعد بدء مرحلة ابتدائها الذي كان قد حُدّد في نهاية شهر نيسان ١٨٦٦، لأَنّ الأُسقف حرص على مشاركتها في الاحتفال بتدشين قبو الكنيسة الكبرى التي شرع ببنائها. وقد سعدت برناديتّ بتلك المناسبة التي كانت تعني بدء تحقيق أَحد مطالب العذراء. ولكنّها تضايقت من تجمهر

الفضوليّين الراغبين في رؤيتها، ومحادثتها، والطلب منها مباركة أَشيائهم. وقد أَسرّت لإِحدى قريباتها:

– ما أَحمق هؤلاء! فليذهبوا، بالأَحرى، إِلى المغارة، لتبريك أَشيائهم فيها، وليدعوني وشأني!

ولطالما شكت:

– إِنّكم تجعلونني فرجةً للناس، وكأَنّني متاعٌ هجينٌ، أَو ثورٌ مسمّنٌ!

في خريف ١٨٦٦، ودّعت برناديتّ مرابع صباها، ومعارفها، وذويها، ووزّعت كلّ محتوى خزانتها في المأوى، وبغصّةٍ، ودّعت المغارة المباركة التي شقّ عليها النأي عنها إِلى الأَبد.

تطوّراتٌ كبرى

في هذه الأَثناء، اكتسى جدار المغارة الذي كان موحشًا، بالنضارة والجمال، وغُرست الأَشجار والزهور من كلّ نوعٍ. وسُوِّرت المغارة، وازدانت بالشموع المشتعلة دائمًا. استمرّ تدفّق النبع، وأُحدثت بِركةٌ تستوعب مياهه المتجدّدة، حيث يغطس الحجّاج التماسًا للبركة، ويغطس المرضى التماسًا للشفاء. وعُبّدت طرقاتٌ عريضةٌ لاستقبال أَفواج الحجّاج، ولتسهيل التطوافات الحاشدة.

وتعالت، بفرحٍ ومجدٍ، نحو أَجواز السماء، كنيسةٌ مهيبةٌ، تبرّع بنفقاتها سخاء المؤمنين، وشكران المرضى الذين أُنعم عليهم بالشفاء، والقلوب التي بُعِثت إِلى الحقيقة والحياة.

وكان الأَب پيرامال لا ينفكّ يجوس بين العمّال، مشجّعًا، ساهرًا على أَدقّ التفاصيل، مصلحًا، هنا، حجرًا وُضع

خطأً، أَو شجرةً لم يُحسَن غرسها، وكأنّه في كلّ مكانٍ، كلّ وقتٍ، بقامته المديدة، «وصايته» السوداء المميّزة، وجبينه العريض المعبّر عن عزيمةٍ لا تلين، وبغيرته الملتهبة في تلبية رغبة ملكة الكون، التي اختارت لنفسها مزارًا في تلك البقعة من المسكونة. كان يتطلّع إلى بناء صرحٍ يتناسب ومجد أُمّ اللّه، وحجم سخائها، ويحلم، دامع العينين، باليوم الذي سيزدحم فيه فناء الكنيسة بتطوافاتٍ تنشد أَمجاد أُمّ اللّه، بكلّ لغات العالم.

وفي الأَيّام التي يقلّ فيها الازدحام، كانت فتاةٌ وضيعةٌ زريّة الهندام، تأتي وتركع في المكان الذي ظهرت لها فيه السيّدة العذراء، وترشف جرعاتٍ من ماء النبع الذي نبشته بيديها النحيلتين. وكان قليلون يتعرَّفون فيها برناديتّ مختارة العذراء، التي، وقد اضطلعت بالمهمّة التي أُسندت إِليها، حبست نفسها في الظلّ والصمت. كانت قد التحقت بمدرسة راهباتٍ حيث تميّزت ببساطتها وامّحائها، وحيث كانت تتلقّى سيلاً من الزائرين، بعضهم من العظماء والمشاهير. ولكن لا شيء كان يُفسد تواضعها وبساطتها، أَو يعكّر سجوّ نفسها

وصفاءها. ولا شيء كان يحجب عنها ذكرى السماء التي أَطلّت على عتباتها، وصورة العذراء الفريدة البهاء. وعلى غرار كاهن رعيّتها، كانت تحلم باليوم الذي تشهد فيه أَرتال الحجّاج القادمين من كلّ بقاع المسكونة، يطوفون في فناء الكنيسة، منشدين أَمجاد مريم.

ونُحت تمثالٌ للعذراء، وفقًا للأَوصاف التي أَدلت بها برناديتّ، بورك ونُصب في المكان الذي ظهرت فيه السيّدة السماويّة، بتاريخ ٤ نيسان ١٨٦٤، في احتفالٍ لم تشهد له تلك المنطقة مثيلاً، على وقع مئات الأَجراس من كنائس المدينة والمدن المجاورة، وسط دموع السعادة، والاندفاع، والشكر، والحبّ.

ولم يستطع الأَب «پيرامال» المشاركة في احتفالات ذلك اليوم الذي طالما انتظره وتاق إِليه، فقد أَقعده مرضٌ عضالٌ، ولم تترامَ إِلى مسامعه سوى أَصداءٍ خافتةٍ من الاحتفال الجماهيريّ المدوّي.

تلك كانت، أَيضًا، حال برناديتّ التي أَلمّ بها مرضٌ

خطيرٌ. فنُقِلت إلى مشفًى عامٍّ مخصّصٍ للفقراء. فقد شاء اللّه ألاّ تجرح تواضعها هتافاتُ جمهورٍ مندفعٍ، وآثر أن يحشرها بين بائسي هذا العالم، الذين طوّبهم يسوع.

وما برحت تنأى عن ضجيج العالم وأباطيله، وعن كلّ ما قد يؤول إلى تمجيدها. فدفنت الكرامات التي خُصّت بها، في صومعة ديرٍ، وحجبت ماضيها في خدمة معذّبي الأرض، وفي المحبّة السخيّة. لقد ماتت عن باطل الدنيا، كي تحيا في تواضع الإنجيل، وطوباه.

رحلة الأَلم:
«نوڤير» ٧ تمّوز ١٨٦٦ – ١٦ نيسان ١٨٧٩

في الثامن من تمّوز ١٨٦٦، قبل أَن تغوص برناديتّ في عباب الصمت، طُلب منها أَن تروي، للمرَّة الأَخيرة، أَمام راهبات الدير المجتمعات، ظهورات العذراء لها، وهي مرتديةٌ زيّها القرويّ. وفي مساء ذلك اليوم عينه، استبدلت زيّها بزيٍّ رهبانيٍّ، وأَعلنت أَنّها جاءت كي تختفي.

في الأَيّام الأولى عانت الشوق إِلى الأَهل ومرابع الصبا، فبكت كثيرًا، ولطالما سكبت دموعها أَمام تمثالٍ للعذراء، منصوبٍ في ما يشبه مغارةً، في زاوية الحديقة.

وبعد ثلاثة أَسابيع ارتدت الثوب الرهبانيّ، واتّخذت اسمًا جديدًا، هو «الأُخت ماري بيرنار». وفيما أُوفدت رفيقاتها إِلى

مختلف مناطق فرنسا، لإتمام تأهيلهنّ لرسالتهنّ، أُبقيت برناديتّ في مركز الدير الرئيس، لحمايتها من الفضوليّين، ووقايةً لصحّتها الهشّة.

في ١٥ آب ١٨٦٦، من جرّاء التعب، اشتدّت عليها نوبة الربو، فبدت وكأنّها تختنق، وأُجبرت على ملازمة الفراش. وكُلّفت أَخواتٌ لها في الرهبنة بالسهر عليها. وكان هذا السهر يضايقها، فتطلب من الساهرات عليها أَن يسترحنَ ويستسلمنَ للنوم، واعدةً بإِيقاظهنَّ واستدعائهنَّ عندما تدعو الحاجة. وأَلِفت أَن تردّد:

– اللّه امتحنني بهذه العلّة. فعليّ قبولها برضًى.

وكانت، دائمًا محدّقةً إِلى الصليب.

وكلّما خفّت وطأة المرض عليها، كانت تضحك، وتمزح، وتنشد الأَناشيد بلهجتها القرويّة، ناشرةً البهجة في صدور أَخواتها الراهبات.

في الخامس والعشرين من تشرين الأَوّل، تفاقم وضعها سوءًا، وتقيّأت ملء وعاءٍ كبيرٍ دمًا، وأَصبح تنفّسها حشرجةً،

فأَشعلت الشموع، في غرفتها، أَمام تمثال العذراء، وأَعلن الطبيب أَنّها لن تعيش حتّى الصباح، فهيّأتها الأُمّ الرئيسة للموت، ومسحها الأَب المرشد مسحة المرضى، وقرّر الأُسقف سماع نذرها الرهبانيّ قبل وفاتها، وبما أَنّها كانت عاجزةً عن التلفّظ به، أَخذ الأُسقف على عاتقه إِعلانه بنفسه، وطلب منها مجرّد الموافقة عليه، فاكتفت بكلمة «آمين»، بعد تلاوة الأُسقف نصّ النذور، وهكذا أَصبحت عضوًا في «جمعيّة أَخوات المحبّة».

وما كاد الأُسقف يغادر غرفتها حتّى قالت للأُمّ الرئيسة التي كانت تنتظر كي تطبق لها جفنيها: «ظننتم أَنّي سأموت في هذه الليلة، ولكنّني لن أَموت الآن». ويقال إِنّ الرئيسة أَنّبتها بقسوةٍ، لأَنّها كانت تعرف أَنّها لن تموت، ومع ذلك لم تعارض مجيء الأُسقف، في ساعةٍ متقدّمةٍ من الليل، كي يبارك نذرها.

وقد حرصت على الاحتفاظ بالصليب الذي أُعطيته مع النذر، وقالت لإِحدى الأَخوات، مازحةً:

– لم يقبلني اللّه. وصلت إلى بابه. ولكنّه قال لي: عودي، فلم يحن وقتك!

وقالت لأُختٍ أُخرى:

– ما زلت سيّئةً جدًّا. لذلك ردّني اللّه!

وفي الثاني من شباط ١٨٦٧، كانت قد برئت، واستعادت عافيتها، فاستأنفت ابتداءها، وقالت لها معلّمة الابتداء:

«– سندخل، الآن مرحلة المِحَن، وسننزل بك الضربات». فأَجابت ضاحكةً:

«– أَرجو أَن تفعلي ذلك برفق».

وشهدت إِحدى زميلاتها في الابتداء: «لم تكن تتميّز عن الأُخريات إلاّ بانتظامها، وصمتها، ومحبّتها القصوى».

في ٣٠ تشرين الأَوّل ١٨٦٧ نذرت نذور «الفقر، والعفّة، والطاعة، والمحبّة». وبعد ظهر ذلك اليوم، تلقّت كلٌّ ناذرةٍ جديدةٍ، من يد الأُسقف، صليبًا، ورسالة إِيفادٍ إِلى فرعٍ من

فروع الجمعيّة، وإيكال مهمّةٍ. استدعى الأُسقف جميع رفيقاتها، ولم يذكر اسمها. ولمّا شهد قلقها، سأل الأُمّ الرئيسة:

«– وماذا عن الأُخت ماري بيرنار؟».

– إنّها لا تصلح لشيءٍ، يا سيّدنا!».

فسألها الأُسقف:

«– هل صحيحٌ، أيّتها الأُخت ماري بيرنار، أنّك لا تصلحين لشيءٍ؟»

«– لقد سبق لي أن قلتُ لكم ذلك، في لورد، ، عندما اقترحتم إدخالي إلى هذه الجمعيّة!»

حينئذٍ تدخّلت الأُمّ الرئيسة، وقالت، وفق اتّفاقٍ مسبّق:

«– إن شئتم، يا سيّدنا، سنبقيها، بدافع الرأفة، في المركز الرئيس، فتخدم، بحسب طاقتها، في المستوصف، كي تقوم بأعمال التنظيف، وإعداد «الزهورات». فبما أنّها، غالبًا، معتلّةٌ، هذه هي المهمّة التي تناسبها».

والتفت إليها الأُسقف، مستوضحًا رأيها، فقالت:

«– سأحاول».

غير أَنّ الأُسقف حلّق عاليًا، وقال لها:

«– إِنّي أُكلّفك بالصلاة!».

وتولّت برناديتّ مهمّة معاونة ممرّضةٍ، مكلّفةٍ بالمزهريّات التي توضع أَمام تماثيل العذراء وإِيقوناتها، وبمبولات المرضى. وسرعان ما برهنت عن ميلٍ إِلى مهنة التمريض، وأَثبتت تأثيرها الخيّر على المرضى. مشيعةً، بمرحها، وتعاطفها الحازم، جوًّا مريحًا وفعّالاً في المستوصف.

ويوم اعتلّت الممرّضة الرئيسة الأَصيلة، حلّت برناديتّ محلّها، ونهضت بكلّ مهامّها، في صمتٍ، وجدوى، وكفاءة.

غير أَنّها ما انفكّت تتعرَّض لانتكاساتٍ صحّيّةٍ متواترةٍ. فقضت عيد الفصح عام ١٨٦٩ في الفراش، ولزمت سرير المرض ثانيةً في شهر تشرين الأَوّل من العام نفسه، إِذ كانت

تبصق ملء أَطباقٍ من الدم. وفي ١٢ نيسان ١٨٧٠ ساءت حالها، وروت إِحدى الراهبات:

«في المستوصف، وجدت هذه الأُخت العزيزة تحتضر. وبدا لي أَنّها لن تعيش أَكثر من ساعاتٍ معدوداتٍ، فقلت لها:

«– أُختي العزيزة، أَرسلتني الرئيسة كي أَسألك كيف قضيت الليل.

– قولي لها ألاّ تقلق، فلن أَموت اليوم!».

ولكأَنّها كانت تتنبّأ بهدنةٍ في نوبات ربوها.

في خريف عام ١٨٧٠، كانت الحرب محتدمةً، والبروسيّون يتقدّمون نحو «نوڤير» حيث الدير الذي كانت فيه. وعندما أُخبرت بذلك، لم تبدِ أَيّة خشيةٍ، بل قالت كلمتها المأثورة:

«– لست أَخشى البروسيّين، ولا أَخشى إِلاّ المسيحيّين السيّئين!»

في ٤ آذار ١٨٧١، تُوفّي والدها الذي كان دائم التوق

إليها، والذي، أَلِف، سابقًا، أَن يخفّ لرؤيتها حيثما ذهبت. ولكنّه لم يزرها في نوڤير، منذ ترهّبها.

في ٢٨ نيسان ١٨٧٢ ساءت حالتها الصحّيّة، ومُنحت «مسحة المرضى»، والأَسرار الأَخيرة، فقد تعذّر عليها التنفّس. ولكنّها ارتشفت جرعةً من ماء مغارة لورد ساعدتها على ابتلاع القربانة المقدّسة، فزفرت الهواء المحبوس في رئتيها، ونضر لون وجهها، وانتعشت، وابتسمت، وطلبت طعامًا، وحاولت النهوض من سريرها، ولكنّ الرئيسة أَمرتها بالبقاء راقدةً حتّى الغد. وفي اليوم التالي دهش طبيبها، إِذ وجدها في ردهة الاستقبال، فقال:

– إِذن، آتت الأَدوية التي وصفتها لك مفعولها!

– ولكنّني لم أَتناولها!

في الثالث من أَيلول ١٨٧٢، أَصدر الدكتور «روبير سان سير»، رئيس جمعيّة أَطبّاء «نوڤير»، وطبيب المركز الرئيس لراهبات المحبّة، في نوڤير، الشهادة التالية، في برناديتّ:

«إِنّها ممرّضةٌ تنهض بمهمّتها، على أَكمل وجه. إِنّها قصيرة

القامة، وهزيلةٌ، ولها، من العمر، ٢٧ عامًا. إنّها، بالفطرة، هادئةٌ ورقيقةٌ، وتخدم المرضى بكثيرٍ من الفهم، ولا تهمل أيًّا من العلاجات الموصوفة. ولذلك تتمتّع بسلطةٍ نافذةٍ، وبكامل ثقتي».

عقب هدنةٍ مؤقّتةٍ، أَلّمت بها نكسةٌ صحّيّةٌ خطيرةٌ في شتاء ١٨٧٢/ ١٨٧٣، فأُدخلت إلى مستوصف الدير للمعالجة، في ١٧ كانون الثاني من عام ١٨٧٣. وتلتها نكسةٌ أُخرى، يوم عيد الفصح، في ١٣ نيسان، لزمت على إثرها السرير مدّة خمسة عشر يومًا، ثمّ أَلّمت بها نكسةٌ خطرةٌ أُخرى في ٣ حزيران؛ وما لبثت أَن استعادت عافيتها وممارسة مهامّها حتّى ٣٠ تشرين الأَوّل ١٨٧٣.

في ٥ تشرين الثاني، عُيّنت راهبةٌ أُخرى، رئيسةً للمستوصف، وأُعيدت برناديتّ إلى وضع المساعدة، بعد أَن كانت كلّ شؤون المستوصف بيدها، تديرها بكفاءةٍ نادرةٍ.

وقد شهدت إحدى زميلاتها كيف كانت تنتزع الديدان من جرح راهبةٍ عجوزٍ عمياء، وكيف كانت تضمّدها برباطة

جأشٍ، وسيطرةٍ تامّةٍ على الذات. وقد قالت لها:

«– لاتنسي أن تري ربّنا في شخص المريض... كلّما كان الفقير مقزّزًا، ينبغي الإمعان في حبّه...» ومرَّةً أُخرى قالت لها:

«– عندما نعالج مريضًا، علينا أن ننسحب قبل أن نُشكَر. فحسبنا، مكافأةً، شرف العناية به».

وكانت نصيحتها الأَخيرة التي أَسدتها لها:

«– اقبلي المرض، وكأنّه دعابة... ابذلي ذاتك في خدمة الفقراء، ولكن في حذرٍ. ولا تستسلمي أَبدًا لليأس. أَحبّي العذراء كثيرًا».

وقد أَثبتت، في تلك الفترة، أَنّها لم تعد تتأثّر بالإِهانات والمعاكسات، وباتت تتقبّل كلّ شيءٍ، بسجوّ نفسٍ.

عام ١٨٧٥، أُعفيت من كلّ مهمّةٍ. هذا الإِعفاء حرم مبتدئاتٍ كثيراتٍ من عونها ومن نصائحها التي أَثبتت جدوى فائقةً. واضطلعت «بمهمّة المريضة»، لخدمة الله.

وكانت المبتدئات يزرنها، وهي على فراش المرض، ويستفدنَ من نصائحها ومن مثالها. فقد كانت موعظةً حيّةً وبسيطةً.

في نهاية حزيران ١٨٧٦، شخص وفدٌ من راهبات «نوڤير» إلى لورد، للاشتراك في احتفالات تكريس الكاتدرائيّة، وتتويج التمثال. وسئلت برناديتّ هل هي راغبةٌ في زيارة لورد، فأجابت:

«– لو تسنّى لي أن ينقلني منطادٌ إلى المغارة، وهي خاويةٌ، لا أحد فيها، كي أُصلّي هناك، بضع لحظاتٍ، لكان ذلك مدعاة سعادةٍ لي. ولكن إن كان عليّ أن أكون وسط الحشود، فإنّي أوثر أن ألزم سريري!» وقالت، أيضًا:

«– أُحبّ أن أرى من غير أن أُشاهَد... لقد ضحّيتُ بلورد. سأرى العذراء في السماء، وسيكون ذلك أجمل».

قضت معظم أيّام عام ١٨٧٥ طريحة الفراش، لا تكاد تنعم بهدنةٍ خاطفةٍ حتّى تنتابها نكسةٌ. معدتها لم تكن تتقبّل طعامًا، وكان استفحال داء السلّ يجعلها تبصق كميّاتٍ كبيرةً

من الدم. في شهر حزيران حُمِلت إلى الكنيسة كي تحضر قدّاس الأحد الذي حُرمت منه مدى ستّة أشهر، بسبب مرضها. وفي نهاية ذلك العام عينه كانت من الوهن بحيث لا تقوى على الانتهاء من كتابة رسالةٍ، مع أنّها لم تكن تُقدم على كتابة الرسائل، إلاّ عندما تعهد انتعاشًا في قواها.

صيف ١٨٧٧ شهد تحسّنًا مدهشًا في صحّتها مكّنها من السير في الحديقة، وفي أرجاء الدير، والنهوض ببعض المهامّ الطفيفة.

في كانون الأوّل ١٨٧٧، اضطرّت إلى التزام السرير، ثانيةً. ولمّا ساءت حالها عُيّنت أخواتٌ للسهر عليها. وكان يُحزنها أن يُحرمنَ النوم بسببها، فتدعوهنّ إلى الرقاد مطمئنّاتٍ، وقالت، ذات ليلةٍ، لإحداهنّ:

«– لا تزعجي نفسك، يا أُختاه، بل أخلدي إلى النوم. يظنّون أنّني سأموت قريبًا. ولكن ما زال أمامي ستّة أشهرٍ من العيش».

كان الربو يسبّب لها، غالبًا، نوبات اختناقٍ، فتحتاج إلى

تنشّق هواءٍ عليلٍ. ولكن كان يُحظر عليها فتح النوافذ، خشية الزكام، والإصابة بآلام المفاصل.

في غروب عام ١٨٧٨ لزمت الفراش نهائيًّا، وفقدت الحوْل، والحيويّة، والذاكرة. وغدت تستخدم القوى الزهيدة المتبقّية لها، في رسم صور آلام يسوع. وقد شقّ عليها أن تصبح، فعلاً، غير صالحةٍ لأيّ شيءٍ. وعندما اعترضت إحدى زميلاتها:

«– ولكنّك تصلّين من أجل الذين لا يصلّون»، أجابت:

«– هذا كلّ ما أقوى على فعله. صلاتي هي سلامي الوحيد. ولا طاقة لي سوى على الصلاة والألم».

عبورها إلى العالم الآخر تمّ من خلال مِحَنٍ مضنيةٍ، خفيّةٍ، وفي ليلٍ دامسٍ، ليل الألم، والإيمان، والرجاء.

حياتها وقداستها قامتا على جوهر رسالة لورد: الفقر، والصلاة، والتوبة، وعلى شعار رهبنيّتها: «الله محبّة، الله وحده»!

في رسالة لورد الأولى، كانت العذراء قد قالت لها: «لا أَعدك بالسعادة في هذه الدنيا، بل أَعدك بها في العالم الآخر». وكانت حياتها نسيج مِحَنٍ متواترةٍ:

فقد عانت:

– الاقتلاع من جذورها، من مرابع صباها، وخاصّةً من المغارة، حيث أُعطيت ما لا يُعطى إلاّ لقلّةٍ نادرةٍ من البشر. لقد وُجد، دائمًا، من كان بوسعه مساعدتها على العودة إلى لورد، لو هي شاءت. ولكنّها أَبت، دائمًا، مؤثرةً البقاء حيث أَراد اللّه أَن تبقى، واثقةً من أَنّها سترى العذراء ثانيةً، في السماء.

– همّ ذويها: بصفتها كبرى إِخوتها وأَخواتها، «الوريثة»، كما كان يقال، كان عليها العناية بأُسرتها. وكانت حريصةً، قبل كلّ شيءٍ، على بقائهم أَوفياء لإِيمانهم، وواجباتهم الدينيّة. ولطالما أَكّدت: «لست أُريد أَن يكونوا أَغنياء، بل أَن يحبّوا اللّه، ويسلكوا سلوكًا قويمًا». وقالت، أَيضًا، لأَحد الكهنة: «أَرجو ألاّ يغتنوا. قل لهم ألاّ يغتنوا».

– مواجهة الفضوليّين، والردّ على أسئلة المسؤولين، والمحقّقين. ومع أنّها نأت عن لورد، كي تتوارى، وما انفكّ سيل المستجوبين يتدفّق عليها.

كانت تجهد في الاختفاء، وعندما تُجرّ جرًّا إلى ردهة الاستقبال من أجل الردّ على أسئلة، كانت تلك محنةً شاقّةً، مملّةً.

– مقاومة ردود الفعل الطبيعيّة السيّئة: كانت، حينئذٍ، تعتصم بالصبر، وبتأمّل الصليب.

– عجزها عن الخدمة، بسبب المرض أو الجهل.

– قسوة الرئيسات: كانت تلك عادةً سائدةً في الأديرة. كنّ يخشين على برناديتّ أن تنتشي زهوًا بالكرامات التي خُصّت بها، وكنّ يخشينَ على أنفسهنّ أن يُفرطنَ في تكريمها، بسبب هذه الكرامات، فيعمدنَ إلى إذلالها، ومعاملتها ببرودةٍ، لا بل كنّ يصفنَها، أحيانًا، بالحمق، وعدم الجدوى.

إحدى الرئيسات لم تكن تؤمن بظاهرة لورد، ولم تتوانَ

عنِ التصريح أَمام أُسقفٍ: «لو شاءت العذراء أَن تظهر، حقًّا، لما ظهرت لقرويّةٍ جلِفةٍ، جاهلةٍ، ولكانت آثرت الظهور لراهبةٍ مثقّفةٍ وفاضلةٍ!»

– إِقحامها في خلاف كتّابٍ، حول ظاهرة لورد، وهي تحبو نحو حتفها. كانت قد أَشبعت الظهورات تأمّلاً، ولكنّها نسيت كثيرًا من التفاصيل والتواريخ، وغالبًا ما أَجابت: «لم أَعد أَذكر».

وقد قالت عن الكتب التي وُضعت عن لورد: «الأَكثر بساطة سيكون هو الأَفضل». وعندما جيء إِليها بصورةٍ لتمثال سيّدة لورد كان قد حقّقه فنّانٌ من لورد، قالت: «إِنّه الأَقلّ سوءًا».

– ظلماتٌ جسديّةٌ ونفسيّةٌ:

فقد كانت هواجس ضميريّة تضاعف آلامها الجسديّة. فكان يكدّرها عجزها عن مقابلة كرم الله بما يليق به. مثل قدّيسين كثيرين، عانت ليل الإِيمان، وباتت تحيا على الوفاء لكلام الله، الخفيّ، الصامت، الغارق في لجّة الشكوك، والمِحَن الداخليّة.

– آلامها الجسديّة: ربوٌ مزمنٌ، سلٌّ متفشٍّ، تمزّقٌ رئويٌّ، داءٌ في المعدة، ورمٌ في الركبة، كان ينتزع منها صيحات ألمٍ، لدى كلّ حركةٍ تقوم بها، فتعذّرت عليها الحركة، وجفاها النوم؛ دمامل في الأُذنين أَدّت إلى صممها، ترقّقٌ في العظام زاد من هشاشتها. لقد بات جسدها مجمَّعًا للآلام والعلل.

منذ شباط ١٨٧٩ باتت ترقد وساقها اليمنى خارج الفراش مسنودةٌ على كرسيٍّ. وقد شهدت إِحدى الأَخوات التي كانت مكلّفةً بالسهر عليها أَنّها كانت تصدر تأوّهاتٍ مكتومةً تجهد في خنقها بين أَسنانها، ضاغطةً على نفسها لكيلا تبقي الأُخت مستيقظةً من جرّاء تأوّهاتها. وسألتها تلك الأُخت:

– هل تحتاجين إِلى أَيّ شيءٍ؟ وهل يسعني أَن أُسدي لك أَيّة خدمةٍ؟

– كلاّ! استسلمي للنوم. وعند الحاجة سأدعوك.

وتظاهرت الأُخت بسكونٍ تامٍّ، كي توهمها أَنّها نائمةٌ،

ولكنّ هذا التظاهر لم يخفَ على برناديتّ فقالت لها، عندما اضطُرّت إلى مغادرتها:

– لم تجدي إلى النوم سبيلاً. أليس كذلك؟

في ٢٨ آذار ١٨٧٩ تلقّت مسحة المرضى، وكانت الرابعة منذ سنةٍ. وقد اعتذرت من رئيستها بقولها:

– يا أُمّي الحبيبة، إنّي أَلتمس عفوكِ عن كلّ ما سبّبته لك من إزعاجٍ، بسبب عدم وفائي للحياة الرهبانيّة. وأَعتذر من رفيقاتي عن قدوتي السيّئة، ولا سيّما عن كبريائي!.

وقد وافقت على حلق شعرها كي ينفق ثمنه على الرسالات.

وطلبت أَن تنتزع من غرفتها كلّ الصور التقويّة، ولكنّها احتفظت بالصليب فقط، قائلة: «هذا يكفيني»

وفي إشارةٍ إلى رواية آلام يسوع في الإنجيل قالت: «عندما أُطالع رواية الآلام، أَتأثّر بها، أكثر من كلّ تفسيرٍ لها».

يوم عيد الفصح، في ١٣ نيسان ١٨٧٩، كانت تسعل بلا

انقطاعٍ. وقد أسرّت لإحدى أَخواتها: «هذا الصباح، بعد المناولة، التمست من الربّ هدنة خمس دقائق، كي أَستطيع أَن أُكلّمه بهدوءٍ. ولكنّه رفض منحي إيّاها... ستستمرّ آلامي حتّى موتي.

وقد باحت لإحدى الأَخوات: «إنّي أُطحَن نظير حبّة الحنطة... لم أكن أَظنّ أَنّ الموت يستلزم هذا الألم».

في ليلة الإثنين الثلاثاء، بعد الفصح، دخلت في نزاعٍ نفسيٍّ. وسمعها معرّفها تردّد:

«– ابعُد عنّي، يا إبليس!».

وقد باحت لمعرّفها أَنّ الشيطان حاول تخويفها، فاستغاثت باسم يسوع القدّوس، فتلاشى كلّ شيءٍ.

ثلاثاء الفصح، تلقّت المناولة، ولكنّها أُصيبت بنوبة اختناقٍ شديدةٍ، فالتمست سرّ الغفران. وعندما دعاها معرّفها إلى تجديد التضحية بحياتها، بحبٍّ، أَجابت بحيويّةٍ:

«– أَيّة تضحيةٍ؟ ليس من التضحية في شيءٍ هجر حياةٍ

حيث يلاقي الإنسان مصاعب جمّةً، كي يكون خاصّة الله!».

مساء ذلك اليوم، باحت للأُخت التي كُلّفت بالسهر عليها:

«– يا أُختي العزيزة، إنّي خائفةٌ. فلكم تلقّيت من النِعَم، وكم كانت إفادتي منها ضئيلةً!».

يوم الأَربعاء طلبت إنهاضها، وإجلاسها على كرسيٍّ مقابل الصليب المعلّق على الجدار. وقد حاولت الممرّضة إعطاءها شيئًا من الطعام، فلم تستطِع ابتلاع أَيّة بلعةٍ. وهَنها بلغ أقصاه. فأَنذرت أَخواتها. وهرع معرّفها، وتلا معها صلاة المحتضرين، فيما كانت أَنظارها محدّقةً بكثافةٍ إلى الصليب، الذي طلبت إنزاله من الجدار وشدّته إلى قلبها، تعبيرًا عن رغبتها في توثيق تحالفها مع يسوع المصلوب، قائلةً:

«– كم أُحبّ يسوع!».

وسألتها إحدى الأَخوات:

«– هل تتألّمين كثيرًا، يا أُختاه؟».

«– كلّ هذا جيّدٌ، من أَجل السماء».

«– سأسأل أُمّنا المنزّهة من الدنس أَن تهبك العزاء».

«– لا، لست أُريد عزاءً، بل القوّة والصبر».

وتجلّت على محيّاها مخايل السجوّ، ووقارٍ حزينٍ، واعترت كلّ جسمها رعشةٌ، وقالت لها إِحدى الأَخوات:

«– ستنحدر العذراء، كي تلقاك» – فأَجابت:

– «أَجل، أَرجو ذلك».

في الساعة الثالثة، بدت وكأَنّها فريسة أَلمٍ داخليٍّ يتعذّر وصفه. فتناولت الصليب، وتأمّلته بشغفٍ، ثمّ قبّلت بحبٍّ وخشوعٍ كلّ جرحٍ من جروح يسوع، وقالت للأُخت الجالسة بجانبها:

– «يا أُختي العزيزة، اغفري لي، وصلّي من أَجلي... صلّي من أَجلي...»

فركعت تلك الراهبة وركعت معها الممرّضتان، وجعلنَ

يتضرّعنَ، وهي تردّد تضرّعاتهنّ، ثمّ أَمالت رأسها، وبنبرة ألمٍ واستسلامٍ تامٍّ، رفعت عينيها إِلى السماء، وبسطت ذراعيها على شكل صليبٍ، وصاحت:

– «يا إِلهي!».

ثمّ عادت تردّد أَدعية رفيقاتها المتضرّعات:

– يا قدّيسة مريم، يا أُمّ اللّه، صلّي من أَجلي، أَنا الخاطئة...

ثمّ أَشارت معبّرةً عن رغبتها في الشرب، فقُدّمت لها قارورة دواء، ارتشفت منها قطرتين، وأَمالت رأسها، وأَسلمت روحها بسلامٍ، وهي تضغط بالصليب على قلبها.

وكانت قد دوّنت هذه الكلمات موجَّهةً إِلى السيّدة العذراء:

«كم كانت نفسي سعيدةً، يا أُمّي العطوف، عندما نعمتُ بمشاهدتك! وكم يطيب لي أَن أَذكر تلك اللحظات العذبة التي قضيتُها تحت أَنظاركِ المفعمة عطفًا ورأفةً تجاهنا!

أَجل، أَيّتها الرقيقة، لقد تنازلتِ حتّى الأَرض،
كي تظهري لفتاةٍ ضعيفةٍ،
أنت ملكة السماء والأَرض، ارتضيتِ استخدام الأَوضع في نظر العالم!».

ملامح برناديتّ

كتب كهنةٌ راقبوها عن كثبٍ:

«كانت طيّبةً، رقيقةً، بسيطةً، ساذجةً. كانت للآخرين قدوةً، ولكنّها لم تكن مدهشةً».

كانت قصيرة الخيال، ومن ثمّ غير مؤهّلةٍ لأيّ اختلاقٍ. ذكاؤها كان يفتقر إلى الليونة. ولم تكن ميّالةً إلى الانفتاح الاجتماعيّ.

لم تكن تملك من سحر الكلام، ومن بلاغة الوصف، ما يُقنع القوم بصحّة الظهورات، وكانت أقلّ الناس قدرةً على استثارة الاندفاع والاهتمام. حديثها كان مقتضبًا، باردًا، لا لون له، لا ينبض بعاطفةٍ أو اندفاعٍ، وسطحيّ التأثير. وكان لا بدّ من طرح سلسلةٍ من الأسئلة عليها من أجل الحصول على وصفٍ كاملٍ لما رأت.

الأَب «پوميان» (Pomian)، الذي كان معرّفها قبل دخولها الدير، قال: «لا شيء كان يميّزها عن أبناء العامّة. فقد تُركت على جهلها. وكادت لا تمتلك من الذكاء أكثر ممّا يملكه سواد الناس بالفطرة».

كانت فقيرةً بالمال، والصحّة والتعليم، وقد أَقصاها فقرها حتّى عن التعليم المسيحيّ، فبلغت الرابعة عشرة، وهي جاهلةٌ لمبادئ الدين الأَساسيّة.

وكانت أُسرتها قد تردّت إِلى قاع الحرمان والحاجة، بحيث، كلّما وقعت في القرية سرقةٌ، كانت تُلصق بوالدها تهمتها، من جرّاء فقره. ومع ذلك اختار اللّه ابنة فرنسوا سوبيروس، على علاّتها، بجهلها وفقرها، بنقائها، ورقّتها وطيبتها، وتفاهتها، كما كانوا يصفونها. إِنّما اللّه يختار الجاهل كي يخزي المثقّفين المعتدّين بعلمهم، ويختار ما هو ضعيفٌ في العالم، كي يخزي المزدهين بقوّتهم. ولذلك اختارت العذراء برناديتّ، ولم تختر فتاةً تنعم بالثروة، وتفخر بالمركز الاجتماعيّ، وتحظى باحترام الجميع.

لم يميّزها الربّ بأيّة معجزةٍ كي يرفع من شأنها، فبقيت، نظير أترابها، قرويّةً ساذجةً. في الدير، فقط، تحرّرت من أُمّيّتها، ولكنّها، حينئذٍ، آثرت الامّحاء والتواري. فيوم أصبحت لورد أهمّ أماكن الحجّ المسيحيّ، نأت عنها برناديتّ مئات الكيلومترات، كي تتوارى في حياةٍ رهبانيّةٍ خفيّةٍ، في الامّحاء والإغفال. ومع ذلك غالى رؤساؤها في اضطهادها وإذلالها، بحجّة الحفاظ على تواضعها، حتّى إنّ فترة ابتدائها امتدّت عشر سنوات، كما لم يحدث لأيّةٍ من طالبات الرهبنة.

وحتّى وهي في المأوى، قبل دخولها الدير، ظنّ الأب پيرامال ورئيسة المأوى أنّ من واجبهما إهانتها أمام الغرباء، اختبارًا لتواضعها، وترسيخًا له! وقد أقرّ جميع الذين شهدوا مثل تلك الامتحانات أنّها كانت تتقبّل الإهانات باستسلامٍ وبساطةٍ، وتعتذر عن العيوب والمآخذ المنسوبة إليها اعتباطًا وافتئاتًا.

ذكاؤها المتواضع، وفهمها المحدود يؤكّدان اختيار الله للأفقر

والأَصغر، والأَدنى تواضعًا، عندما يحتاج إلى وسيطٍ لمخاطبة الجماهير. وقد اختار الله جهلها كي يؤكّد مصداقيّتها، فيوم بلّغت كاهن الرعيّة تعريف العذراء لنفسها بعبارة: «أنا الحبل بلا دنس»، تأكّد الكاهن من صدقها، بسبب عجزها عن اختلاق عبارةٍ بهذا العمق اللاهوتيّ، وهي لاتدرك معناها.

هي مارست الفقر، وتمنّت أن يستمرّ ذووها في ممارسته، وهذا ما أَوصتهم به. ولكنّ فقرها المادّيّ والنفسيّ واكبه عطشٌ متلظٍّ إلى الله.

فهي، قبل أَن تختارها السماء، كانت على صلةٍ بها، بواسطة الصلاة. وكانت صلاتها بسيطةً ولكن عميقةً. وساعدتها الصلاة على احتمال الفقر والحرمان والإِهانات، ثمّ الوحدة بعيدًا عن ذويها، والآلام المضنية.

تلقائيًّا كانت تستلّ المسبحة من جيبها، وتتلوها بخشوعٍ. وقد أَكسبت الظهورات صلاتها استنارةً وعمقًا. وكانت تلاوتها للمسبحة مُعديةً، فانتشرت بين من كانوا يشاهدونها،

الذين باتوا يذرعون الطرقات، وهم يخاطبون اللّه وأُمّه، وأناملهم تخطر فوق حبّات مسابحهم.

كانت تبذل جهدًا في ممارساتها التقويّة، غير أنّ تقواها لم ترقَ، قطّ، إلى مستوى السموّ الصوفيّ الذي ظنّ كثيرون أنّها بلغته في أعقاب ثمانية عشر ظهورًا. ولم تفقدها تقواها اتّزانها، ومن ثمّ كانت بمنجاةٍ عمّا اتّهمها به أعداء الظاهرة من هلوسة. تقواها كانت صادقةً وراسخةً، ولكنّها كانت خاليةً من كلّ اندفاعٍ أو تسامٍ. وقد طُلبت منها، يومًا، صلاةٌ خاصّةٌ، فأجابت: «صلاتي المفضّلة هي المسبحة، وأنا شديدة الجهل، بحيث لا يسعني اختراع صلاةٍ خاصّة». ولطالما أقرّت: «لا خبرة لي بالتأمّل، ولا طاقة لي عليه».

صدقها، وبساطتها، وتكتّمها، وتواضعها وامّحاؤها، ومواظبتها على النهوض بالمهامّ اليوميّة الوضيعة، وتجرّدها المادّيّ والنفسيّ، كلّ ذلك هو الذي نفى عنها تهمة الكذب والخداع.

لم تحاول، يومًا، استغلال وضعها بصفتها رائية لورد. وكانت تردّ على الأسئلة المتعلّقة بالظهورات، عندما تطرح عليها، ولكنّها لم تكن، يومًا، هي المبادرة إلى روايتها.

وقد شهد الأَب اليسوعيّ «كروس» (CROS) الذي كتب سيرتها، وفُتن منذ مقابلته الأولى لها، ببساطتها وصدقها، موجزًا انطباعاته عنها:

«لها فتنةٌ فائقة الطبيعة... وبساطةٌ سماويّةٌ. إنّها كلّيّة البساطة، وكلّيّة الطيبة. ولكنّها حريصةٌ على كرامتها. هذه البساطة لن تقوى الطبيعة الأَرضيّة على إفسادها».

وعندما قابلها ثانيةً، وسمع منها، بلهجتها الخاصّة، أَقوال العذراء، اعترف:

«بدا لي أَنّي أَسمع السيّدة العذراء، ولست أَذكر أَنّني شعرت، يومًا، بفرحٍ سماويٍّ حميمٍ، كما شعرت، آنذاك». ولا غروَ، فقد جعلت برناديتّ السماويّ بمتناول يده.

وروى الأَب «پيرامال» أَنّه، إِذ كان، ذات يومٍ، يناول

المؤمنين، تقدّمت من المائدة الإلهيّة فتاةٌ، رأى، حول هامتها، هالةً نيّرةً أذهلته. فناولها، ولم يتبيّن هويّتها. غير أنّه لاحقها بنظره، إلى أن عادت إلى مكانها. وعندما استادرت كي تركع، تعرَّف فيها برناديتّ سوبيروس. ومنذ تلك اللحظة تبدّد، من نفسه، كلّ ريبةٍ بشأنها.

بالإجمال، كانت شخصيّة برناديتّ، بجهلها، ومرضها، وهشاشتها، وفقرها، دعمًا لظاهرة لورد، بفضل ما اتّصفت به من بساطةٍ وصدقٍ لم يُفلح أحدٌ في التشكيك بهما، وبفضل وفائها لرسالة العذراء، وصمودها البطوليّ في وجه الضغوط القاهرة التي مورست عليها، ونأيها عن استغلال الظهورات في سبيل أيّ مغنمٍ، رغم فقر ذويها المدقع.

كانت تطيع رؤساءها، ولكنّها لا تنثني ولا تتهاون، ولا تساوم، بشأن ظهورات العذراء ورسائلها، حريصةً على حماية رؤاها ومصداقيّتها، وقد أثبتت مقدرةً مدهشةً على مقاومة الضغوط التي حاصرتها من كلّ صوبٍ. وبسبب صمودها، تعرَّضت لاضطهاداتٍ جمّةٍ. فأُمّها صفعتها، ومديرة مدرستها

وصفت رواياتها بالمهزلة والتهريج، وكاهن الرعيّة قابلها بالشكّ وسورات الغضب، وواجهتها السلطات الحكوميّة بالردع والتهديد. غير أنّها لم تتفوّه، يومًا، بكلمةٍ تنمّ عن غيظٍ أو ضيقٍ.

والذين سعوا إلى الإيقاع بها، أدهشتهم تلك الفتاة الأُمّيّة بأجوبتها الحكيمة، البسيطة على أسئلةٍ معقّدةٍ، وبصمودها في وجه كلّ الغوايات المادّيّة والنفسيّة، ورغم ما كانت تكابده من حرمانٍ وقلّةٍ.

على بساطتها وتجرّدها، ومنعتها النفسيّة، قامت ظاهرة لورد. وفي حين غدا مزار لورد يستقطب مئات أُلوف الزائرين، غاصت برناديتّ في لجّة النسيان، وحينها كتب الأَب پيرامال: «لقد أنهت مهمّتها».

ويوم توفّيت في خفية الدير وصمته، كانت مواكب حجّاجٍ كثيفةٌ، من كلّ جهةٍ وكلّ مشربٍ، تؤمّ لورد باطّرادٍ، موقنةً أنّ السيّدة العذراء، ملكة السماء والأَرض، قد ظهرت لتلك الراعية الفقيرة، وكلّمتها، وكلّفتها بإبلاغ رسائل.

وتكريمًا لسيرتها التي اندرجت في الفقر والبساطة، في التواضع والخدمة، في الامّحاء والتجرّد، في الصلاة والحبّ، في التضحية والألم، أعلن البابا بيّوس الحادي عشر، عام ١٩٣٣، الأُخت برناديتّ سوبيروس قدّيسةً.

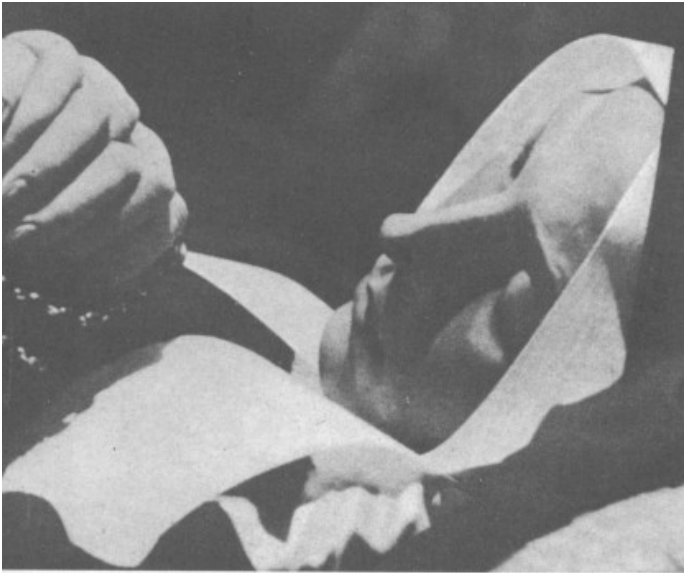

جثمان القدّيسة برناديتّ كما يبدو حتّى اليوم

حفلة تطويب برناديتّ في كاتدرائيّة القدّيس بطرس
(١٩٢٥/٦/١٤)

حفلة إعلان قداسة برناديتّ (١٩٣٣/١٢/٨)

متبرّعات لخدمة المرضى

تطواف مرضی

الصلاة في لورد

رسالة لورد

في حقبة ظهورات لورد، كانت العقلانيّة المادّيّة المزهوّة بانتصاراتها، قد أَلَّهت العقل، ونظّمت عبادته. وراجت فلسفةٌ تعِد بالتجرّد من كلّ تبعيّةٍ لنظامٍ علويٍّ. كانت الكبرياء البشريّة المنتفخة بإنجازاتٍ غيّرت وجه العالم، ووجه الحياة البشريّة، تسعى، في كلّ الاتّجاهات، إلى الانعتاق من ربقة العقيدة الصارمة، ومن وصاية الكنيسة.

وجاءت العذراء كي تلقّن العالم التواضع والصلاة.

وغدت لورد حاضرة العبادة، والمعجزة، والغفران. وتقاطرت الجموع إلى مزارها كي تجدّد صفاء إيمانها بحرارة الحبّ، والرجاء، والوفاء للتعاليم الإلهيّة. واليوم بات عدد الذين يؤمّون ذلك المزار يربو على خمسة ملايين حاجّ سنويًّا،

وكثيرون منهم ينعمون فيه بأَشفيةٍ روحيّةٍ وجسديّةٍ مدهشةٍ، ما زالت الكنيسة تلتزم جانب الحيطة والتحرّز في إِعلانها، والاعتراف بصفتها المعجزة.

وقد كتب «هويسمان» (J.-K. HUYSMANS)، بهذا الشأن: «مستوصف لورد هو جهنّم أَجسادٍ، وفردوس نفوسٍ. لم أَشهد، في أَيّ مكانٍ آخر، لا عللاً أَشدّ بشاعةً، ولا مثل هذا القدر من المحبّة، والرقّة. لورد، من وجهة نظر الرأفة البشريّة، معجزةٌ. فيها تُشاهد، خيرًا من أَيّ مكانٍ آخر، ممارسة تعاليم الإِنجيل، عمليًّا».

في لورد تجلّت مريم العذراء ترياقًا للخطيئة، معلّمةً أَنّ كلّ شرٍّ ينبع من عصيان الله، ومذكّرةً أَنّ ابنها عانى أَدهى الآلام، والموت الذليل، تكفيرًا عن خطايانا.

لورد هي تذكيرٌ بتعاليم الإِنجيل، ودعوةٌ ملحّةٌ إِلى العمل بمقتضاها، في عهدٍ ظنّ أَهله أَنّ التقدّم هو تجاهل الإِنجيل، والإِعراض عن تعاليمه، بل تخطّيها.

وفي وقتٍ راجت فيه الدعوة إلى التمتّع بأَيّ ثمنٍ، بلا قيدٍ، دعت العذراء إلى التوبة والصلاة، من أَجل خلاص الذات، وارتداد الخطأة.

وقد توافق بدء أُسبوعَي الظهورات مع بدء الصوم الكبير، ومع قول العذراء لبرناديتّ: «سأجعلك سعيدةً، لا في هذه الدنيا، بل في الآخرة». ورمزت إلى التوبة، بدعوة برناديتّ إلى ارتشاف ماءٍ موحلٍ، وإلى التهام أَعشابٍ برّيّةٍ، وإلى تقبيل الأَرض، ما سبّب استهجان الحضور واستنكارهم، لأَنّهم لم يستوعبوا مغزى هذا السلوك.

ولا عجب إن أَصبحت لورد مكان تحوّلات القلوب والنفوس، والأَذهان، لدى مؤمنين بسطاء، ولدى علماء مرموقين نظير الدكتور «أَلكسي كاريل»، الحائز على جائزة نوبل في الطبّ، والذي خلّد تجربته في كتابه «الرحلة إلى لورد».

لقد كان من شأن معجزات لورد زلزلة العالم. ولكنّ العالم

ظلّ سادرًا في غيّه، طائشًا، سطحيًّا، رافضًا الخلاص، رغم كلّ ما حلّ به من كوارث.

لورد تمثّل التوق الفطريّ إلى السماويّ والروحيّ المتحرّرَين من المادّيّة والعلماويّة، وتمثّل، أيضًا، جاذب الأُمومة العطوف الذي تُشعّه مريم، أُمّ اللّه، وشفيعة البشر.

لورد جزيرة إيمانٍ وروحٍ، وسط بحرٍ من الحداثة فاقدة الروح.

والحجّ إلى لورد هو توقٌ إلى حمايةٍ أُموميّةٍ، وإلى الرحمة والخدمة المدعَّمتين بحبّ مسيحٍ متألّمٍ شافٍ.

رسالة لورد يمكن اختزالها بالعناوين التالية: فقر، صلاة، توبة، ونزاهة مريم، أُمّ اللّه والبشر، من كلّ دنسٍ.

الفهرس

الفصل الأوّل: طفولة حافلة بالمعاناة ٥

لورد ومغارتها ٧

برناديتّ سوبيروس ١٠

الفصل الثاني: ظهورات العذراء ٢٧

الظهور الأوّل: ١١ شباط ١٨٥٨ ٢٩

الظهور الثاني: ١٤ شباط ١٨٥٨ ٤٣

الظهور الثالث: ١٨ شباط ١٨٥٨ ٤٧

أسبوعا الظهورات:
من ١٨ شباط حتّى ١٤ آذار ١٨٥٨ ٥٣

ظهورات ٢١ شباط ١٨٥٨ ٥٩

ظهور ٢٢ شباط ١٨٥٨ ٨١
ظهور ٢٣ شباط ١٨٥٨ ٨٨
ظهور يوم الأربعاء ٢٤ شباط ١٨٥٨ ٩٤
الخميس ٢٥ شباط ١٨٥٨ ١٠٣
لا ظهور في السادس والعشرين من شباط ١٨٥٨ ١١٤
ظهورات تكفيريّة في ٢٧ و٢٨ شباط ١١٧
شهادات وعجائب ١١٩
كنيسة صغيرة وتطواف: ٢ آذار ١٨٥٨ ١٢٧
الأربعاء ٣ آذار ١٣١
«اليوم الكبير». الخميس ٤ آذار ١٨٥٨ ١٣٤
٢٥ آذار ١٨٥٨: «أنا الحبل بلا دنس» ١٤٥
ظهور الثلاثاء: ٦ نيسان ١٨٥٨ ١٥٧

صراعٌ بين السلطات والمؤمنين ١٦٣
إغلاق المغارة ١٧٧
الظهور الأخير: ١٦ تمّوز ١٨٥٨ ١٨٣
الفصل الثالث: برناديتّ ١٨٧
برناديتّ الشاهدة والشهادة ١٨٩
التحقيق الكنسيّ ٢٠١
الراعية والمثال ٢٠٦
مسيرة برناديتّ بعد الظهورات ٢١٠
برناديتّ الراهبة ٢١٦
تطوّرات كبرى ٢٢١
رحلة الألم: «نوڤير»
٧ تمّوز ١٨٦٦ – ١٦ نيسان ١٨٧٩ ٢٢٥

رسالة لورد ٢٥٧
الفهرس ٢٦١

المطبعة البولسيّة
جونية - لبنان